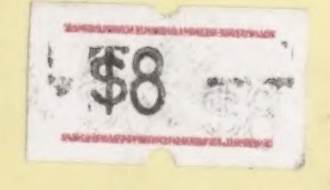

$8



VIE DE SAINT EPHREM

PAR

UN PRÊTRE SYRIEN CATHOLIQUE

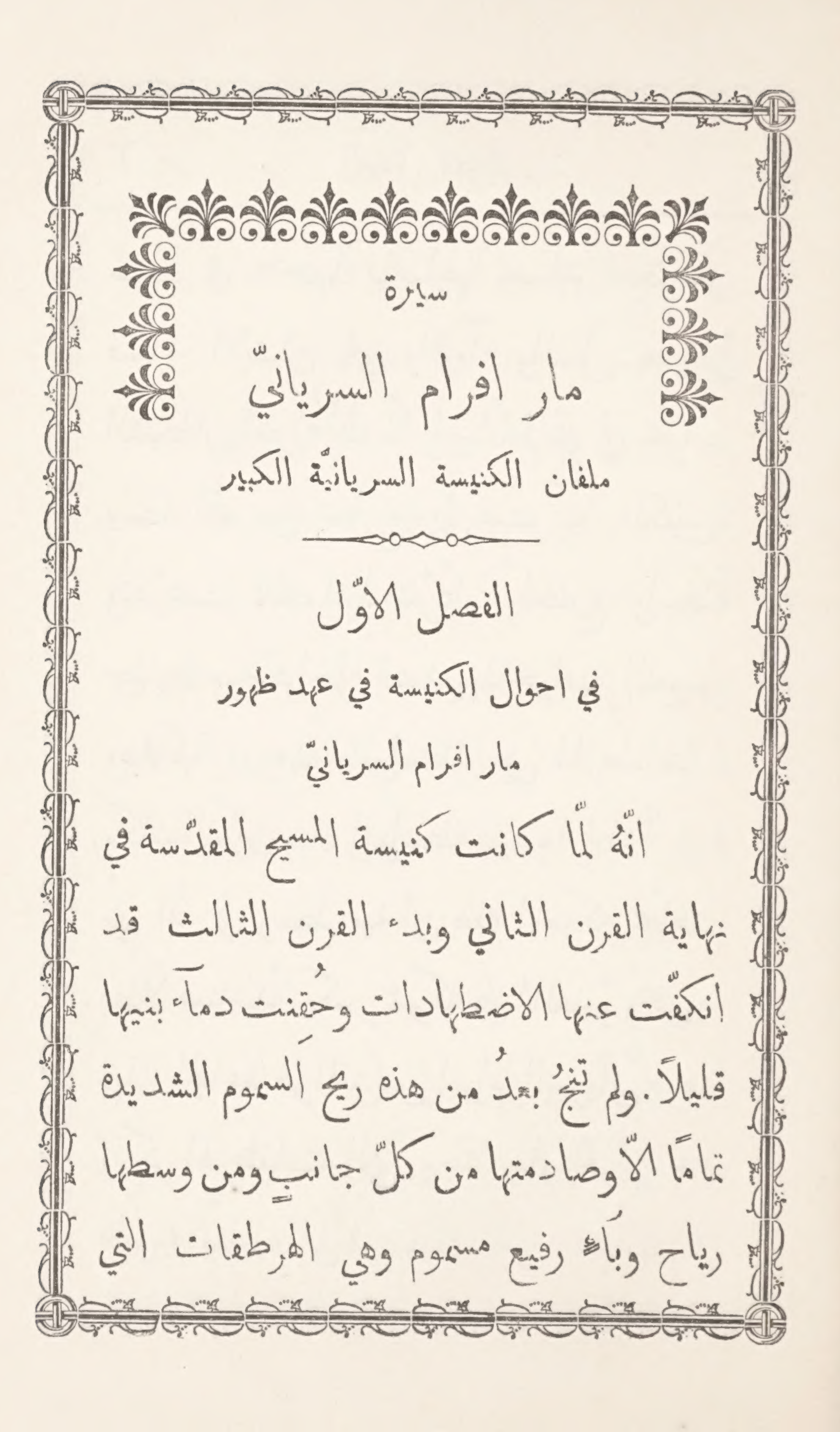
DEUXIÈME ÉDITION



MOSSOUL

IMPRIMERIE DES PÈRES DOMINICAINS

1896



سيرة

مار افرام السريانيّ

ملفان الكنيسة السريانيّة الكبير

الفصل الاوّل

في احوال الكنيسة في عهد ظهور مار افرام السريانيّ

انّهُ لمّا كانت كنيسة المسيح المقدّسة في نهاية القرن الثاني وبدء القرن الثالث قد انكفّت عنها الاضطهادات وحُقِنت دماء بنيها قليلاً. ولم تنجُ بعدُ من هذه ريح السموم الشديدة تماماً الّا وصادمتها من كلّ جانبٍ ومن وسطها رياح ووباءٌ رفيع مسموم وهي الهرطقات التي

سرت في جسمها فاصابتها بفساد اعظم من فساد الابدان اي الوبآء والسلّ ✲ فانّ الشيطان أخزاه الله لمّا رأى انّهُ لم ينجح في خراب بيت الله من خارج بل نمت بهِ الكنيسة وتفرّعت اغصانها تفرّعًا . اخترع واسطةً جديدة من داخل قصد بها خراب النفوس وهلاكها . وهذه الواسطة هي الهرطقات . وكاد اللّعين بهذه الواسطة يبيدها إبادةً لولم يُقِم الله في وسط ميدان هذه المعركة مجاهدًا بطلاً صنديدًا يكسر شوكة هذا العدوّ ويخزيهِ . فهذا المجاهد هو القدّيس افرام السريانيّ✲وهنا نذكر الهرطقات التي وجد مار افرام عند ظهورهِ بقاياها والهرطقات التي نشأت في

ايّامهِ وحاربها وذكرها هو في مصنَّفاتهِ ولاسيما في وصيتهِ الاخيرة كما سنرى *

اوّل ذلك شيعة السبتيّين : التي انشاها من القرن الاوّل يهود غير مستنصرين بالتمام لانّهم كانوا يتمسّكون بعوائد كثيرة يهوديَّة ولاسيّما بحفظ السبوت . فلما كاد ينطفئ ذكرها اعادها رجل اسمهُ سيثيُس وزاد عليها تحريم استعمال اليد اليُمنى فدُعوا لذلك يساريّون *

ثمّ شيعة الوالنتينيّين : نسبةً الى والنتين المصريّ الذي كان يواصل نسلهُ الى سام ابن نوح والى الجبابرة الذين كان يدعوهم آلهة . ومن زعمهِ انّ جسد يسوع كان سماويًّا لا ارضيًّا بشريًّا *

ثمّ الثاثريّون : او الرافضون . هولآء ظهروا في القرن الثاني وكانوا ينكرون سلطان مغفرة الخطايا . فمن اخطأ او كفر ثمّ تاب لم يقبلوا توبتهُ . ثمّ أُطلِق اسمهم على غيرهم من هراطقة زمانهم *

ومنهم البربريّون : وكانوا يسمّون انفسهم منوَّرين واغنسطيقيّين ويفضّلونها على سائر المومنين بل على رسل المسيح انفسهم لانّهم على زعمهم لم يفسّروا الكتب المقدّسة حقّ التفسير لغلاظة عقولهم . وكانوا ينكرون الدينونة الاخيرة *

ومنهم الحاويّون : او الأُفيثيّون نسبةً الى الحيّة التي تسمّى في اليونانيّة أُفيس وكانوا شعبةً

من الاغنسطيقيّين نشأوا في القرن الثاني ومزجوا عبادة المصريّين للحيَّة مع عبادة المسيحيّين . فكانوا يكرمون الحيّة اكرامًا كثيرًا ويزعمون انّ الحيّة التي اغوت حوّآء امّ البشر كانت الحكمة الازليّة بذاتها وهي المسيح نفسهُ وهي التي علّمت الخير والشرّ لابوَي البشر . وانّ الهَيُولَى اي المادّة لأبديّة . واللّه اضطُرَّ الى خلقة العالم . وانّ العالم يدبّرهُ الجنّ . فالمسيح اتّحد بالجسد الذي هو يسوع . ثمّ مات وانفصل منهُ وبموتهِ هدم مملكة الجنّ . وكانوا في ذبائحهم يصفرون بحيّةٍ كانت في غارٍ قريبٍ من المذبح لتخرج وتتمرّغ في الذبيحة ثمّ يناولونها للجماعة مثل اوخارستيّا *

ومنهم البولسيّون : نسبةً الى بولس الشميشاطيّ اسقف انطاكيّة في القرن الثاني وكان نبيهاً لبيباً متكبّراً ذو سيرةٍ منكَرة . هذا زعم باقنوم واحد في الله وهو الآب . وباسمهِ فقط كان يعمّد وانّ الابن والروح القدس صفتان اظهر الله بهما ذاتهُ للعالم . حتّى انّ يسوع لم يكن إِلاهاً بل اعطاهُ الله حكمتهُ بنوعٍ خصوصيّ فسُمّيَ إِلاهاً بالاسم ومن باب الجواز فقط . وكان هذا التعليم اوّلاً خفيًّا فلمّا ظهر وحاماهُ بولس المذكور حُرِمَ في مجمع انطاكيّة هو واهلهُ *

ومنهم المرقيانيّون : تبّاع مرقيان البنطيّ رفيق قلدرون الملحد . هذا زعم بوجود إِلهين :

الَه الخير ابو يسوع المسيح معطي العهد الجديد وهو الهنا . والَه الشرّ خالق المادّة والعالم ومعطي العهد العتيق والَه اليهود *

ومنهم السابيليّون : تبع سابيل المصريّ القائل باقنوم واحد في الله وبانّ المسيح هو هذا الالَه المتجسّد ونكر التمييز بين اقانيم الثالوث *

واشهرهم البرديصانيّون : تبّاع برديصان (اي ابن ديصان نهر الرها) الرهاويّ. هذا ظهر نحو سنة ١٧٠ للمسيح . وكان في اوّلهِ محاميًا للديانة المسيحيَّة غيورًا عليها حتّى انَّهُ كاد يموت شهيدًا حبًّا بها . ولكنَّهُ سقط اخيرًا في ضلالة الوالنتيبين فزعم بوجود الجنّ وملكهم

وبإلهين اله الخير واله الشرّ . وانّ جسد المسيح لم يكن بشريًّا بل سماويًّا . وعلّم انّ الموتى لن تقوم في اليوم الآخر بالاجساد التي ماتوا فيها بل يرجعون الى اجساد جديدة لطيفة كان آدم قد فقدها بخطيّتهِ * وكان برديصان قد صنّف كتبًا كثيرة في السريانيَّة بحث فيها ضدّ القائلين بالقدَر وبعلم التنجيم وتُرجمت كتبهُ الى اليونانيَّة لفصاحتها . ولكنهُ غَوي وقال بما كان قد نكرهُ . وهكذا جمع شيعتهُ المعروفة باسمهِ * وخلّف مكانهُ حرمون ابنهُ . امَّا هـذا فزاد على شرّ ابيهِ اذ انّهُ اشهر ضلالتهُ بشعرٍ ونظمٍ ليغري الناس بها *

وممّن اشتهر بالبدَع المانيّون : تبّاع ماني

الفارسيّ المجوسيّ . هذا ظهر في اواسط القرن الثالث وزعم بوجود إِلٰهَيْن ازليَّيْن إِلٰه الخير وإِلٰه الشرّ وبوجود نَفسَين في الانسان وابدع هو وتبّاعهُ ضلالات شتّى غير هذه وكان يتعاطى باشياء خفيّة ويستعين بالسحر لاصطناع المعجزات واكثر منها حتّى انّهُ قتل ابن ملك الفرس اذ كان يريد ان يشفيهُ من مرضهِ بالسحر ومكافاةً لذلك سُلِخ جلدهُ وهو في الحيوة *

ومن هذه الاصناف ايضاً الآريوسيّون : تبّاع آريوس القسّيس الاسكندريّ الذي ظهر في مبادئ القرن الرابع . فهذا نكر لاهوت ابن الله ومساواتهُ في الجوهر للآب . وصنّف

تسابيح واغانيّ وسرد فيها غلطهُ الذميم . فحُرِم في المجمع النيقاويّ المسكونيّ المعروف بمجمع الثلاثمائة والثمانية عشر * فجدّد آريوس بتعليمهِ غلط المراطقة الاونميانيّين : الذين كانوا يقولون ايضاً انّ الايمان وحدهُ كافٍ للخلاص ولو مهما كانت المآثم عظيمة وعديدة . وكانوا يوجبون إِعادة المعموديّة لمن قد صُبغ بها على اسم الثالوث المقدّس . وينكرون وجوب الاكرام للصور المقدّسة وللذخائر القدّيسين *

ومنهم تَبَع ابلّيناريس : الذي نكر وجود نفس المسيح وقال انّ في المسيح كان اللّاهوت يقوم مقام النفس العاقلة *

فمن يصدّق انَّ كنيسة المسيح المقدّسة كان يمكنها ان تبقى طاهرة لا عيب فيها وهي محاطة باعداآء عديدين وقائمة بين حيلهم وتفنّناتهم الشيطانيّة . اتظنّ ياصاح انّ الله جلّت عنايتهُ يسمح بنزول ظلام كثيف مثل هذا ولا يُعِدّ نورًا ساطعًا حتّى يقشعهُ ويزيلهُ . انّ هذا النور الساطع هو مار افرام اضآء وابرق في جبل الرها مدينةٍ مبنيّةٍ على راس جبل . فانّهُ ظهر في تلك الايّام وصار عجبًا وحارب الضلالات المذكورة جميعها بفصاحتهِ وعلمهِ وقداستهِ. وهذا تراهُ في الفصول التابعة *

الفصل الثاني

ولادة مار افرام – إنبآء الله بشهرتهِ باعجوبة اظهرها لهُ اذ كان طفلاً – بدء منشئهِ بنعمة الله – زلّتهُ – اضطهاد ابويهِ لهُ — سبب هذا الاضطهاد – طردهُ من البيت .

وُلد مار افرام في ايّام قسطنطين الملك الكبير في نحو سنة ٣٠٠ للميلاد في مدينة نصيبين * وكان ابوهُ في الاصل من نصيبين . وامّهُ من آمد التي هي ديار بكر * وكان ابوهُ عند الوثنيّين كاهناً لصنمٍ اسمهُ ابنيل * وظهر افرام منذ اوّل امرهِ كأنّ الله عزّ وجلّ اختارهُ من بطن امهِ مثل ارمياء وسموئيل ليملأَ العالم كلّهُ بحكمتهِ وقداستهِ . وذلك برؤيا

عجيبةٍ رآها اذ كان طفلاً في حضن امّهِ . وقصّها هو على تلاميذهِ عند مفارقتهِ هذه الدنيا * وهي : انهُ رأى كرمةً خرجت من لسانهِ وملأَت باغصانها الارض كلّها حتّى كانت طيور السمآء تاتي وتستظلّ بها وتجمع فيها عشّها وتقتات من يانع عنبها * وسنرى تصحيح هذه الرؤيا في مجرى اقتصاص ما باشرناهُ من سيرة حياتهِ * وكانت نعمة الربّ معهُ . وهي التي حفظتهُ في تربيةٍ صالحةٍ يقلّ وجودها بين المسيحيّين انفسهم . وكان بعيدًا من عشرة الصبيان الاشرار حتّى انّهُ لم يُذكَر انّهُ سقط في صباهُ لا بل في عمرهِ كلّهِ في خطأ الّا في زلّةٍ تُعذَر في الصبيان . وهي انّهُ

ساق بقرة جار اهلهِ يومًا فتاهت في البرّية وعلى التلال وبذلك حصل ضرر لاصحابها * ونعمة الله صانتهُ ايضًا من الاشتراك في الذبائح النجسة واعياد الاصنام ومن ان يذهب مع ابيهِ للسجود لابنبيل الصنم * وكانت الابالسة تحسدهُ حسدًا شديدًا اذ ترى حسن منشئهِ هذا وتفزع منهُ ولا تحبّ وجودهُ في بيت ابيهِ * وكان ابواهُ يرغبان اشدّ رغبةٍ ان يرافقهما الى بيت الاصنام * وربّما اصابهُ الاذى من ابيهِ لمخالطتهِ صبيان المسيحيّين * ورآهُ ابوهُ مرّةً يخاطب رجلاً مسيحيًّا . فاحتدّ عليهِ غضبًا وضربهُ ضربًا عنيفًا بلا رحمة زاعمًا انّ آلهتهُ غضبت عليهِ من سبب ذلك * ثمّ دخل

الى هيكل ابنيل ليقرّب لهُ الذبائح ويستغفر عن ذنب ابنهِ * فلمّا فعل ذلك حسب عادتهِ . ناداهُ الشيطان من جوف الصنم قائلاً : اننّا راضون باهتمامك واعتكافك على الذبائح والضحايا لخدمتنا زماناً طويلاً غير اننّا لا يمكنّا ان نجيب الى طلبتك ونرضى عن ابنك لانّهُ سوف يضحي عدوًّا ومضطهداً لنا * فان احببتَ ان نبقى عندك . اطردهُ من بيتك وخلِّ سبيلهُ * فخرج ابوهُ لوقتهِ ودعا افرام وقال لهُ : انّك عدوٌّ لآلهتي * قم انطلق من عندي فانّي لستُ اريد ان اراك في منزلي بعد الآن * فلمّا سمع افرام هذا الكلام اطاع لانّهُ كان متوقّعهُ منذ زمان .

ففرح فرحًا عظيماً وخرج من بيت ابيهِ ولم ياخذ معهُ شيئًا ولا يعلم وجهًا يتّجهُ اليهِ *

ويسوغ الظنّ في ابويهِ انّهما تابا بعد ذلك وقضيا بقيّة ايّامهما في الديانة المسيحيَّة لِمَا عايناهُ وسمعاهُ من قداسة السيرة والعجائب في ابنهما حتّى انّ بعض المؤرّخين ظنّوهما مسيحيَّين من الاصل لا بل قد زعم البعض انّ امهُ كانت مسيحيَّةً من اصلها *

الفصل الثالث

التجآء مار افرام الى كنيسة المسيحيين – تتلمذهُ لمار يعقوب اسقف نصيبين – نشاطهُ في درس الحكمة وخوف الله – تجربتهُ بتهمةٍ فضيحة وصبرهُ عليها – برآءتهُ منها – ومجدهُ في ذلك .

ولمّا كانت النعمة الالهيّة مرافقةً لافرام . فادخلتهُ في كنيسة المسيحيّين * فبلغ خبرهُ اسقفّ المدينة مار يعقوب الكبير الذي كان سابقًا من جملة رهبان جبل سنجار اي تلاميذ مار اوجين المشهورين * فقبلهُ الاب الجليل بين المبتدئين في تعليم الديانة النصرانيَّة المستعدّين للعموذيّة المقدَّسة . واحبّهُ كثيرًا

هو واهل المدينة لِمَا عاينوا فيهِ من حبّ الدرس والعبادة وخوف الله * وشرع منذ ذلك اليوم يلازم قلاّية الراعي القدّيس ويقتدي باعمالهِ القشفيَّة وينشو في النعمة والعمر ويتعلّم الاقوال الالهيّة والمزامير * حتّى انّهُ في مدّةٍ قليلةٍ بلغ مبلغاً سامياً من الحكمة وخوف الله * وكان مار يعقوب مسروراً اذ يرى تلميذهُ الجديد ناجحاً في اكتساب الدرس والتدرّب في العبادة . وكذلك الاقليرس كانوا يتعجّبون منهُ ويمجّدون الله في سببهِ * فصحّ فيهِ قول سيدنا يسوع المسيح : طوبى للعبد الذي يمجّد اسم سيّدهِ من اجلهِ *

ولكنّ الشيطان كان يشاهد هذا كلّهُ

باسفٍ وحسد . فهيّج عليهِ بسماح الله تجربةً شديدةً يعسر الصبر عليها * وذلك انّهُ كان في كنيسة نصيبين ساعور اسمهُ افرام فهذا ساقهُ الهوى الذميم الى السقوط في الخطأ مع فتاةٍ من بنات العظمآء * واذلم يقدر ان يكتم امرها . لقّنها بان تقول لابويها بانّ غاصبها وفاضح بكوريّتها هو افرام تلميذ الاسقف وانّ هذا التلميذ منافق ولو انّ العامّة تسمّيهِ صدّيقًا * فلمّا احسّ اهل الصبيّة بامرها اجابتهم كما لقّنها الساعور الخبيث * فحنقوا على افرام الصدّيق حنقًا شديدًا . فاندهش اهل المدينة من هذا الخبر واستغرب القدّيس نفسهُ هذا الخبر الغريب * فذهب ابوا

الصبيَّة الى الراعي القدّيس مار يعقوب وانهيا الامر اليهِ . فتعجَّب القدّيس من الشكوى واخذتهُ الحيرة في تصديق الخبر * فصلّى وطلب من الله حتّى يظهر لهُ الحقّ . ولكنّهُ لم ينَلْ اربهُ . لانّ افرام ايضاً طلب من الربّ عكس ما طلب معلّمهُ حتّى يجد سبباً اكبر للتواضع والصبر * فدعاهُ الراعي القدّيس وسألهُ قائلاً : ايّ عمل سوء ارتكبتَ يا ابني . فسكت افرام ولم ينطق بكلمة * فسألهُ ثانيةً . فقال لهُ افرام بصفة الاسيف المتواضع المعترف : نعم يا ابانا انّني اخطأتُ * فاطلقهُ يعقوب وهو مرتاب بامرهِ . لانّهُ كان عالمًا باعمال افرام الفاضلة في السرّ والعلانية .

وبروحهِ البعيدة من كلّ دنس الخطيّة * امَّا الصبيّة فلمَّا حان امرها واتاها المخاض وضعت طفلاً * فحملهُ ابوها واتى بهِ الى يعقوب فشقّ الامر عليهِ وتجدّدت احزانهُ . ومع ذلك دعا افرام في حضرة الاقليرس * فلما مثل بين يديهِ دفع الطفل اليهِ وحكم عليهِ بنفقة إِرضاعهِ وتربيتهِ * اوّه من يعلم كم من الهوان احتمل افرام اذ ذاك . وكم من التثريب والزجر سمع . ومن يمكنهُ ان يعبّر بالكلام عن الفضيحة والخجل اللّذين قاساهما اذ كان يحمل الطفل على ذراعيهِ ويطوف بهِ الازقّة والبيوت متطلّباً حليباً من الامهات بين تعيير الناس وهزء الرعاع والصبيان * فلا غرو انَّهُ بلغ

حينئذٍ الى آخر درجةٍ من الصبر والتواضع * غير انّ الله سبحانهُ وتعالى الذي لا يهمل احبّاءهُ لم يترك الامر على حالهِ * وذلك انّهُ عزّ وجلّ الهم القدّيس بانّهُ لا يجوز لهُ لاجل خير نفسهِ وحدها ان يصير سبب عثرةٍ وشكٍّ لجميع الشعب . فتذكّر قول الانجيل القائل . الويل للرجل الذي تاتي على يدهِ الشكوك وخاف وارتاع من ذلك * ففي يوم الاحد اذ كان الراعي القدّيس مع الاقليرس والجماعة مجتمعين للصلوة في الكنيسة . دخل افرام وعلى ذراعيهِ الطفل . فتقدّم الى مار يعقوب واستأذنهُ بان يصعد المنبر . فأذن لهُ* فلمّا صعد صار سكوت عظيم في الكنيسة

واحدق الشعب بهِ منتظرين نهاية الامر * فرفع افرام الطفل الى فوق تجاه المذبح وصرخ بصوتٍ عظيم وقال : اقسم عليك ايّها الطفل الرضيع باسم ربّنا يسوع فاطر السمآء والارض ان تقول لنا الحقّ :من هو ابوك *ففتح الطفل فاهُ ونطق وقال : انّ افرام ساعور الكنيسة هو أبي. ثمّ كرّر الجواب ثانيةً وثالثةً وفاضت روحهُ * فعند ذلك شمل الجمع خوفٌ عظيم وشرعوا يبكون ويقولون باعلى اصواتهم : الويل لنا ثمّ الويل لنا. إننا ظلمنا هذا الرجل الفاضل. ايّ خيرٍ نامل من الله بعد تشنيعنا على هذا الصدّيق* ومن ثمّ تابت الفتاة صاحبة الفضيحة. وجثا اهلها عند قدمَي افرام وطلبوا الغفران

منهُ . ومثل ذلك فعل الشعب * امَّا افرام فركع وصلّى هو ومعلّمهُ مار يعقوب طالبَين من الله غفرانًا لجميع المذنبين * ومن ذلك اليوم عظم افرام في اعين الخاصّة والعامّة حتّى كان اهل المدينة يتقاطرون اليهِ لينالوا بركتهُ *

الفصل الرابع

نصب افرام معلّمًا — باكورة موءلّفاتهِ — نوالهُ المعموديّة — اشتراكهُ في دحض هرطقة آريوس — همّتهُ في دفع الحصار من نصيبين — تهزيمهُ شابور ملك الفرس وجنوده بالعجائب .

بعد هذه الامور نُصِب مار افرام معلّمًا

في مدرسة نصيبين * فثبت وزاد علمًا وحكمةً.
وصنّف في تلك المدّة باكورة موءلّفاتهِ وهي مداريش تُسمّى النصيبينيّة * وهي مملوّة من الاقوال الحكميَّة الغويصة والادبيَّة البديعة في الفاظها ومعانيها * ولمّا بلغ الثماني والعشرين من العمر اقتبل سرّ المعموديّة المقدَّسة التي كان تائقًا اليها منذ صباهُ باستعدادٍ وشوقٍ جزيل بنوعٍ يفوق على رفقائهِ الموعوظين وهم المستنصرين من الوثنيّين لانّ الكنيسة كانت تدعهم في التجربة مدّة اشهر وسنين بقدر ما ترى كافيًا *

وفي اثناء ذلك الزمان التأم مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر لدحض هرطقة آريوس الملحد في

نيقية * فانطلق مار يعقوب الى المجمع واخذ معهُ تلميذهُ افرام * فلمّا حرموا اريوس وانفضّ المجمع . استكبر اريوس وبغي واراد ان يضبط كنيسة القاثُليقيّين في القسطنطينيّة نفسها . ولكن بدعآء مار يعقوب وافرام واثناسيس لقي الملحد الشقيّ عاقبة كبريآئهِ اذ تمرّغ في دمهِ وخرجت امعاؤهُ ومات في مرحاض *

وكان القدّيس افرام بعد رجوعهِ من المجمع يزداد يوماً فيوماً فضلاً وقداسةً . ويتنوّر بالمعرفة الروحيّة والمواهب الالٓهيّة . ولا يبرح من قرآءة الكتب المقدّسة ومن الترقّي في درجات الفضيلة والكمال * وكان مداوماً على الصلوة والصوم وثابتاً ثباتاً

شديدًا على العفّة والتواضع والطاعة لمعلّمهِ القدّيس *

وبعد ذالك توُفّي الملك الظافر قسطنطين وخلفهُ في المملكة اولادهُ * وبلغ الخبر مسامع شابور ملك الفرس . فاقبل بجيشٍ عظيم الى مدينة نصيبين وكانت حدُّ المملكتين الروميّة والفارسيّة لياخذها من ايدي الروم . واقام عليها الحصار مدّة سبعين يومًا . وحبس ماء النهر فاضحى غديرًا عظيمًا هائلًا . واراد شابور ان يطلقهُ على اسوار المدينة ليهدمها ويفتحها بذالك * فجمع ماريعقوب ومار افرام الناس في الكنيسة واقاما صلواتٍ ودعاء . فالهمهما الله بان يُشيّد سورٌ ثانٍ جديد من داخل

ويصعدهُ المحاربون ويدافعون العدوّ * فلمّا تهوّر السور العتيق بماء النهر. فرح شابور في اوّل الامر فرحًا شديدًا وايقن باخذ المدينة. ولكنّهُ خاب املهُ اذ رأى سورًا ثانيًا جديدًا وعليهِ شخصٌ متوشّح بثيابٍ ملوكيّة وعلى راسهِ تاج كأنّهُ ملك الروم * فغضب على وزرائهِ الذين قالوا لهُ انّ الملك الجديد هو في انطاكيّا. غير انّهُ لمّا وقف على حقيقة الواقع. ايقن بقوّة الله * امّا مار افرام فلم يكتفِ بذلك بل صعد هو نفسهُ السور وطلب من الله ان يخفض كبرياء المجوس الاعداء باصغر الذباب. فلم يفرغ من صلاتهِ الاّ واتت سُحُب من بقٍّ دقيق على معسكر العدوّ. فدخل

البقّ آذان الفيلة والخيل وفي مناخرها حتّى قطّعت لحُمها والقت من كان عليها ووطئتهم بقوائمها ومضت هاربةً مجفّلةً لا تلوي على شيءٍ ولا تمرّ باحدٍ الاّ وطئتهُ . فمن ثمَّ نكص الملك الطاغي هاربًا بخجلٍ عظيمٍ اذ علم انّ يد ربّ الجنود كانت ضدّهُ وصار معلومًا في نصيبين كلّها انّهُ بافضال مار افرام صنع الله هذه المعجزة وأُعجبوا بهِ إعجابًا *

الفصل الخامس

وفاة مار يعقوب – فتح نصيبين على يد الفرس – هجر مار افرام مدينة نصيبين – ذهابهُ الى الرها – مصادفتهُ نساء – خدمتهُ في حمّام – دعوتهُ الى الترهّب على يد راهب شيخ .

ثمّ بعد ذلك بقليل مرض القدّيس الكبير مار يعقوب فخر اساقفة المشرق وانتقلت روحهُ الطاهرة الى المنازل السماويّة بين انفس الآباء القدّيسين لتحظى بالسعادة الابديّة * وكان ابن قسطنطين ايضاً قد توفّاهُ الله * فانتهز الفُرس تلك الفرصة وبسماحٍ ربّانيّ فتحوا مدينة نصيبين ودخلوها * فشقّ على مار افرام كلا الامرين . اي وفاة معلّمهِ وظلم

الاقوام المجوس * فتمثّل بابينا ابراهيم وهرب من مدينتهِ وتوجّه الى آمد وحيث انَّهُ لم يجد راحتهُ فيها . قصد مدينة الرها . فلمَّا رآها من بعيد وابصر الاديرة العامرة التي حولها والكنائس التي فيها . ارتقش قلبهُ تهلّلاً وعزم ان يسكنها طول عمرهِ * ولمَّا دنا من الدخول فيها صادف نسوة غسّالات يغسلنَ الثياب على شاطئ ديصان نهرها فحدّقت احداهنّ نظرها بهِ . فزجرها القدّيس بقولهِ لها اخجلي ولا تحدّقي بي بل حدّقي بالارض . اما المرأة اللسنة فاجابتهُ بقولها لهُ انا يسوغ ويحقّ لي ان احدّق بك لاني أُخذت منك . امَّا انت فينبغي لك ويجدر بك ان تحدّق بالارض لانك أُخذت

منها * فتعجّب القدّيس من جوابها وقال في نفسهِ : لعمري اذا كانت نساء الرها الغسّالات هكذا نبيهات ومتفننّات . فما عسى ان تكون حكمة رجالها وعلمائها * ثمّ انّهُ دخل المدينة . ولانّهُ لم يكن يدري حرفةً يتعيّش بها . شرع يخدم في احدى الحمّامات * غير انّهُ لمّا وجد انّ كثيرًا من اهل الرها هم متمسّكون ايضاً في الوثنيّة . كان لا يزال ساعة استراحتهِ وفراغهِ من العمل يعظهم ويحرّضهم على ترك ضلالتهم ليهتدوا بنور الانجيل المقدَّس * وما زال يفعل هكذا الى ان صادقهُ مرّةً شيخٌ من النسّاك . فاحبّهُ وخشي عليهِ من معاشرة غير المؤمنين . وسألهُ هل يريد ان يزهد في الدنيا

ويتبعهُ منقطعاً للسيرة الرهبانيّة * فاجابهُ افرام الى ذلك بفرح . وخرج من المدينة مع ذلك الشيخ وصعد الى الجبل القريب منها فرآهُ مزيَّناً بمساكن كثيرة للرهبان فدخل في ديرٍ واستعدّ ولبس اسكيم الرهبنة ثمّ اختار لهُ مغارة واقام فيها متنسّكاً مواظباً على الصلوة والصوم والسهر ولبس المسوح وتروَّض بسائر التقشّفات التي يعسر وصفها باللّسان * ويظهر ممّا كتبهُ بعد ذلك عن النسّاك القدّيسين والمتوحّدين الطاهرين المعاصرين لهُ واصوامهم وترنيماتهم الغير المنقطعة ورفع ايديهم النقيّة في الصلوة وركعاتهم العديدة ودموعهم الغزيرة التي كانت تُذهل الغير المومنين انفسهم . واستعدادهم

الحارّ عند حضورهم الذبيحة الالهيَّة. وتقدّمهم الى المائدة المقدّسة مائدة جسد ودم سيّدنا يسوع المسيح . انهُ اقتدى بكلٍّ منها بجسدٍ ونشاطٍ مقدّسين وكتبها وطبعها في قلبهِ واستعملها هو بنفسهِ اوّلاً . ثمّ ادرجها في صُحُف مداريشهِ ومصنّفاتهِ * وكان مع نسكهِ هذا كلّهِ يقرن درس العلوم مع مطالعة الكتب المقدّسة ويُكثر من التأمّل فيها . وينذر ايضاً بالانجيل والحقّ على الكفرة والضالّين وذلك تشبُّهاً بالقدّيسين المذكورين ولاسيّما بالقديس ابراهيم الرهاويّ الذي قرن النسك مع الانذار بالانجيل اذ انّهُ كما حكى القدّيس افرام عنهُ ضُرب مرّاتٍ كثيرة وكاد يُقتَل بالضرب حبّاً بترجيع اهل

قرية في نواحي الرها كانوا يعبدون الاوثان والقدّيس ابراهيم بكثرة احتمالهِ منهم وطول اناتهِ عليهم ربحهم للمسيح ☆

الفصل السادس

رويا الناسك الشيخ عن مار افرام — كتابة مار افرام تفسير الكتاب المقدّس — شهرتهُ في الرها وعند ملافنتها — هرب افرام من اكرامهم — تونيب الملاك لهُ — نزولهُ الى المدينة وفحصهُ في مدرسة العلماء وشهرتهُ فيها — حسد الهراطقة ومؤامرتهم على ايذائهِ — رجوع افرام الى منسكهِ — اصطحاب تلاميذ اليهِ .

امّا ما كان من الشيخ الناسك . فانهُ رأى بعد حينٍ رؤيا : ملاكاً نازلاً من السماء وفي يدهِ صحيفة مكتوبة من الوجهَين وهو

يخاطب ملاكًا آخر ويقول : لمن تظنّ أُرسلت هذه الصحيفة * فاجابهُ الآخر : اظنّها مبعوثة لأورِجنِس الذي في بريّة الصعيد * فاجابهُ : لم يأمرني الربّ بذلك . ثمّ سألهُ ثانيةً : من ترى يكون اهلاً لهذهِ الصحيفة . فقيل لهُ : ليوليُس المتوحّد في المغرب * فاجابهُ الملاك وقال : انّكم لا تدرون ولا تعلمون . اذ ليس يستحقّ هذهِ الصحيفة في زماننا سوى افرام السريانيّ المقيم في جبل الرها * امّا الشيخ المذكور فلم يفهم من الرؤيا شيئًا . غير انّهُ تذكّر افرام المترهّب جديدًا على يدهِ . فخرج من صومعتهِ قاصدًا ان يعودهُ . فانطلق الى مغارتهِ فوجدهُ جالسًا يكتب تفسير اسفار التوراة التي كتبها

موسى النبيّ وقد فرغ من السفر الاوّل وشرع بالثاني * فاخذهُ العجب من ذلك خادم الحمّام كيف انّهُ في زمانٍ يسير اضحى مزيّناً ليس بالفضائل فقط بل بالحكمة السماويّة ايضاً * فتحقّق حينئذٍ انّ الرؤيا انّما كانت من الله * فاخذ ذلك الكتاب عينهُ وذهب بهِ المدينة في المدرسة الرهاويّة المشهورة في ذلك الحين واحضرهُ بين ايدي الملافنة والاقليرس . فلمّا شاهدوهُ . طالعوهُ بعجبٍ ودهشة عظيمة . لِمَا رأوا فيهِ من الفصاحة والعلم والحكمة . وخالوا انّ الشيخ قد كتبها . فاخبرهم الشيخ حينئذٍ بقصّة افرام من اليوم الذي وجدهُ في الرها وبسيرتهِ وبالرؤيا السماويّة التي رآها عنهُ *

فلمّا سمعوا ذلك زاد عجبهم واخذوا يتقاطرون الى الجبل ليشاهدوهُ ويطلبوا منهُ المصير معهم الى المدينة لينفع بتعاليمهِ مدرستهم الشهيرة والكنيسة باسرها * امّا افرام فخاف من المجد الباطل وترك مغارتهُ وفرَّ منهم واختلى في وادي الجبل * فتراءى لهُ ملاكٌ وقال لهُ : الى اين تهرب يا افرام . فاجابهُ القدّيس يا سيّد انّ عبادة آلهي في السكون والخلوة احبُّ اليّ وانفعُ لي من الاختلاط مع اهل العالم * فوبّخهُ الملاك بكلام الانجيل : هل رأيت احدًا يَقِد سراجًا ويضعهُ تحت مكيال . أليس يضعهُ على منارة ليضي لكلِّ من في البيت * ففهم القدّيس انّ الملاك قال ذلك عنهُ . فاجابهُ : لستُ اهلاً

يا سيّد ان تُقال عنّي آية مثل هذه * ثمّ انحدر الى المدينة . وقبل ان يدخل الباب رفع عينيهِ نحو السمآء وصلّى وقال: ايّها الربّ الاله يامن اعطيت السلطان لرسلك على الشياطين والارواح النجسة وسلّحتهم بمواهب روح القدس حتّى يبيدوا الشيطان وقوّتهُ . اعطني قوّةً لابيد جميع الهرطقات المضادّة للحقّ . قال هذا ودخل المدينة من الباب الشرقيّ * ولانّهُ كان المسآء . بات تلك الليلة في برج من البروج ساهرًا في صلوةٍ غير منقطعة * ثمّ قام صباحًا واقبل الى الكنيسة . فلمّا راهُ الناس قالوا: ها انّ ذاك الذي خرجنا في الامس لنراهُ وهرب منّا . قد اتى من تلقآء نفسهِ * ثمّ

احضروهُ بين ايدي العلمآء والروسآء والاقليرس ليفحصوهُ. وكانت اوّل اجابتهُ. قولهُ: سامحوني يا آباءي انا هو الذي طلبتموني في الامس * ثمَّ حدّثهم بكلّ تواضع واحترام وحكمة عن كلّ ما سألوهُ عنهُ وبذلك تعجّبوا منهُ عجباً لا مزيد عليهِ وجذبهم الى محبّتهِ *

غير انَّ شرف افرام لم ينتهِ الى هنا. فانهُ كان في جبل الرها راهبٌ مشهور عند العامّة بالقداسة وبالرُؤى الالهيّة * هذا خرج من صومعتهِ واقبل ينادي في المدينة باعلى صوتهِ ويقول: انَّ افرام هو صفيّ الله الذي على يدهِ الله عتيد ان يقهر الهرطقات وينقّي الزؤان من الحنطة في كنيستهِ * فلمّا سمع

الهراطقة هذا الكلام . احتدُّوا غضبًا على افرام واجمعوا امرَهم هم والوثنيّون على ان يؤذوهُ حتّى يموت ويخلصوا منهُ * فاذ صادفوهُ يومًا ضربوهُ ضربًا موجعًا اوصلهُ الى الرمق الاخير * ثمَّ بعد ان استفاق افرام على ذاتهِ واستراح وقضى اربهُ من المدينة . رجع الى صومعتهِ في الجبل وانقطع بنفسهِ عن الخلق * واخذ يصنّف الرسائل والمقالات والكتب العجيبة التي يعجز اللّسان عن وصفها * وفيها دحض الهرطقات والضلالات ووضّح حقائق الدين المسيحيّ كلّ الايضاح حتّى انّهُ رجع بواسطتها كثيرٌ الى الحقّ * وبذلك نرى في هذا القدّيس الفريد الفاضل اقتران السيرة الرهبانيّة

المتوحّدة في الخلوة مع السيرة الرسوليّة المشتهرة بين الناس. وفي مصنّفاتهِ نرى اقتران البراهين الراهنة مع فصاحة الكلام في الشعر والكلام المنظوم * وكان الجميع منذهلين منهُ ومن حكمتهِ وفضائلهِ ومن الآيات التي كانت تجري على يدهِ وشاع صيتهُ في كلّ النواحي حتّى صحبهُ جمٌّ غفير من الخلق. وتتلمذ لهُ رهبان شتّى. منهم زينوب الذي كان شمّاسًا في كنيسة الرها * واسحق الذي صار احد ملافنة الكنيسة السريانيّة * وشمعون وابرهيم وغيرهم من الذين اتّخذوهُ قدوةً ومثالاً لهم. وانذروا وكتبوا مثلهُ وردّوا الضالّين الى الحقّ *

الفصل السابع

تشوُّق مار افرام الى مشاهدة مار باسيليُس القيصريّ
بسبب رؤيا رآها عنهُ — سفرهُ اليهِ — العجائب التي
جرت على يدهِ في السفر — اجتيازهُ في صعيد مصر —
محادثتهُ مع الانبا بيشاي — تهذيبهُ الرهبان وردّهُ
كثيرًا منهم من هرطقة آريوس.

وفي اثناءَ ذلك كانت اخبار مار باسيليُس اسقف قيصريّة قَفَدوقيّا قد بلغت مسامع مار افرام فتشوَّق كثيرًا الى مشاهدتهِ. فاخذ يصلّي الى الله ليعرف ما هيئة مار باسيليُس وصفتهُ * فبينما هو يصلّي تراءى لهُ قدّام المذبح شيءٌ شبه عمودٍ من نور ممتدّ من السماءَ الى الارض وسمع صوتًا يقول: افرام

كما انك رايت هذا العمود هكذا هو باسيليس* فاشتدّ شوقهُ اليهِ. واخذ معهُ تلميذاً عالمًا باللغة اليونانيّة ليترجم لهُ. ونزل اوّلاً الى بلاد مصر* فلمّا ركب السفينة قامت زوبعة هائلة كادت تغرّق السفينة حتّى عزم الملاّحون ان يلقوا انفسهم في البحر ليأسهم. فشجّعهم مار افرام وقال صلّوا ولا تخافوا فانّ نفساً واحدة منكم لا تعطب. فإِنَّ الله الذي نجّى سفينة بولس هو ينقذنا من الغريق* امّا الملاّحون فهزئوا منهُ ولم يعبأوا بكلامهِ بل حسبوهُ هذياً* فتعجّب القدّيس من قلّة ايمانهم وبسط ذراعيهِ وصلّى قليلاً. ثمّ التفت الى البحر وقال: اسكنْ باسم ربّنا يسوع المسيح. ولمّا قال هذا. صار

هدوٌّ وسكون عظيم فخجل الملاّحون وتعجّبوا وجثوا هم والركّاب عند قدمَي الرجل القدّيس وشكروا افضالهُ ومجّدوا الله * ولمّا سارت السفينة بهم قليلاً . اعترض لهم حيوان هائل بحريّ جدّد رعبتهم فرسم القدّيس عليهِ صليبًا فمات من ساعتهِ . وصار يطوف على وجه الماء . فزاد عجب الركّاب وايمانهم ومجّدوا الله في قدّيسيهِ *

ولما نزل في ارض مصر اتّجه الى ارض الصعيد وافتقد النسّاك الذين هناك المعروفين بالاسقيطيّين ولاسيّما الانبا بيشاي الناسك الشهير * ولم يكن افرام يعرف شيئًا من اللغة القبطيّة ولا الانبا بيشاي السريانيّة * امّا افرام

فابتهل الى الله تعالى فاجاد عليهِ بموهبة التكلّم بالقبطيّة وعلى الانبا المذكور بالسريانيّة * فمن ثمّ عظم سرورهما واقاما معًا زمانًا بمسامرة مقدّسة * ثمّ ان افرام فارق الانبا المذكور واقام في برّ الصعيد نحو ثمان سنين وهو مواظب على الصوم والصلوة والتقشّف ومنهمك في دحض الهرطقات ولاسيّما هرطقة آريوس الاسكندريّ المنتشرة هناك. وهدى للايمان رهبانًا كثيرين كانوا قد تلوّثوا بها . وكتب في ذلك شيئًا كثيرًا من المقالات والمداريش في اللغة القبطيّة * واتّفق انهُ كان في ذلك البَرّ راهب مضلّ مشهور اضلّ كثيرين بواسطة سحرهِ وحِيَل الشيطان * فهذا صادف يومًا

مار افرام وهو ينصح واحدًا من تلاميذهِ . فغضب وشنّع عليهِ كثيرًا فمن ثمّ احسّ افرام انّ الشيطان الذي اعترى ذلك الراهب هو الفاعل . فاغتار وتسلّح باسم الصليب المقدّس وقال لهُ : يا عدوّ كلّ برارة لتزجرك قوّة الله ولا تعود تتكلّم في جبلّتهِ * فيا للدهشة ويا للعجب . انّ افرام قبل ان يفرغ من كلامهِ سكت الراهب سكوتًا وأُفحم وسقط على الارض واخذ يخبط الارض ويزبّد شِدقهُ . فاجتمع الرهبان من كلّ ناحية ليعاينوا ما جرى بالشيخ المضلّ . فحينئذٍ اشفق مار افرام عليهِ وتقدّم فرسم عليهِ صليبًا وقال : لك اقول ايّها الروح النجس باسم ربّنا يسوع المسيح الذي صُلب لاجل

البشر اخرج من جبلّتهِ * وللوقت خرج الروح النجس منهُ . فامسك افرام بيد الشيخ واقامهُ وجعل يهذّبهُ ويرشدهُ ويعلّمهُ حتّى اعادهُ الى الايمان الصحيح *

الفصل الثامن

سفر مار افرام الى قيصريّة – العجائب التي بواسطتها عرف مار باسيليُس افرام – مخاطبتهما المقدّسة – جعل مار باسيليُس افرام شمّاسًا وتلميذهُ كاهنًا – توديع باسيليُس وافرام – عود افرام الى الرها .

ولمّا قضى افرام اربهُ من برّ الصعيد ودّع الرهبان وركب سفينةً وتوجّه الى مدينة

قيصرية * فادركها ليلةَ عيد ظهور ربّنا اي
عيد الدنح وطلب القدّيس باسيليُس . فقيل
لهُ في الغد تشاهدهُ في الكَنيسة . ولم ياْوِهِ احدٌ
منزلًا لفقرهِ ورثّة حالهِ فبات ليلتهُ في السوق .
وفي صباح يوم الدنح انطلق القدّيس الى
الكنيسة وجلس هو وتلميذهُ في احدى زواياها
لكي لا يُرَى . ومن هناك شاهد القدّيس باسيليُس
جالسًا على المنبر وهو متوشّح بحلّة الاحبار وعلى
راسهِ تاجٌ بهيٌّ وبيدهِ القضيب الراعويّ المذهّب
وقد احاطهُ جمٌّ غفير من الاقليرس والشعب *
فحزن افرام لمّا شاهد المجد والبهآء في مَن ظنّهُ
متنسكًا وقد قصد رؤيتهُ من بلادٍ شاسعة .
فمن ثمّ التفت الى تلميذهِ وقال لهُ متحيّرًا .

من يصدّق انّ هذا هو ذاك عمود النور الذي تراءى لي في الرها هو متسربل بالحلل الفاخرة والمجد الباطل وكان حقيقاً ان يرفض الزينة والمجد ويلازم الفقر والتواضع اذ هو تلميذ المسيح . فهذا الامر يحيّرني يا اخي * ولم يزل يردّد هذا الكلام في عقلهِ الى ان شرع مار باسيليُس بالخطبة على الجماعة وهو يتفرّس فيهِ فرأى روح القدس على كتفهِ اليمنى بشبه حمامةٍ كأنّها تسارّهُ . فحينئذٍ تعجّب وفهم فضل رجل الله * وعلم انَّ القدّيس لم يتزيَّن حبّاً بالمجد الباطل بل اكراماً للسيّد المسيح الممجَّد في السمآء . وتذكّر انّ الحبر في بيعة الله هو صورة المسيح ووكيلهُ * وبينما كان القدّيس

يخطب جرت وشوشة بين السامعين لتعجّبهم من فصاحة راعيهم ومن الثناء عليها * امّا مار افرام فارتقش قلبهُ فرحًا وجدّد الثناء على مار باسيليُس بعد صمت الشعب * وفي ذلك الوقت علم مار باسيليُس بإِلهامٍ الهيّ بوجود مار افرام السريانيّ هناك * فدعا الارخدياقون (١) واشار لهُ الى مكان افرام وقال لهُ اذهب هناك فتجد راهبًا عليهِ دلالات الرثّة والفقر . فقل لهُ : هلمّ . فانّ ابانا باسيليُس يدعوك * فلمّا عرض الارخدياقون كلامهُ على افرام . اجابهُ القدّيس . العفو يا سيّدي . انّك لواهِمٌ فانّنا غرباء مقبلون من بلدٍ بعيد ولا

(١) يونانيّة معناها رئيس الشمامسة .

يعرفنا رئيس الاساقفة * فصدّقهُ الرسول لمّا رأى عليهِ هيئة الفقر ورجع بالجواب الى رئيسهِ : فقال مار باسيليس : ارجع اليهِ فتراهُ قد تحوّل من مكانهِ فقل لهُ هكذا : افرام افرام. رئيس الاساقفة يدعوك اسرع وتعال . فعاد الارخدياقون وانحنى امام افرام انحناء الاكرام وبلّغهُ الكلام * فتعجّب القدّيس من تسمية اسمهِ واجابهُ انّهُ سوف يدخل اليهِ في المذبح عند الفراغ من القدّاس الالهيّ لينال بركتهُ * ثمّ قال لتلميذهِ : لحقّ انّ هذا هو عمود الكنيسة الذي ظهر لي . لانّي رأيتُ روح القدس ينطق على لسانهِ بشبه حمامة * ولمّا انتهت خدمة الاسرار المقدّسة . دخل مار افرام مع تلميذهِ

الى قدس الاقداس * فلمّا لمحهُ باسيليُس الكبير نهض من كرسيهِ وقبّلهُ قبلة السلام. وقال لهُ: مرحبًا بك يا مكثّر تلاميذ المسيح مبارك مجيئك يا داحض الهرطقات وداثرها. ليتني كنت انا افرام وانت باسيليُس* فاعتذر اليهِ افرام بتواضعٍ عميق * ثمّ ادناهُ الراعي القدّيس من المذبح هو وتلميذهُ وناولهُ من اسرار جسد يسوع مخلّصنا ودمهِ. وبعد الصلوات الكثيرة تحادثا بمحادثات روحيّة في مباحث مقدّسة. وذلك بواسطة التلميذ المترجم* وكان من جملة كلامهِ لافرام: قل لي يا أَبا النسّاك وحمام البرّيّة انّك تربّيت باللسان السريانيّ ولا تحسن اليونانيّة. فما أَدراك بمديح الجماعة

حتى مدحتني مرَّتين وقت خطبتي . قال افرام يا سيّد انّي كنت امدح روح القدس الذي كان ينطق فيك * قال باسيليوس : قد قلتُ واقول . ليتني احصل انا الخاطئ على ما وهبك الله من المواهب الالهيَّة * ثمّ بعد كلامٍ طويل مقدَّس طلب باسيليوس بالحاجة ان يرسم افرام كاهنًا . فابى وتمنّع لكونهِ كما قال خاطئ وغير مستحقٍ ان يتقلّد كهنوت ربّهِ ويلمس جسدهُ ودمهُ الأقدسَين . وبالكدّ نال ان يسيمهُ دياقونًا شمّاسًا * وبقي شمّاسًا الى حين موتهِ . غير انّ مار باسيليوس رسم تلميذ افرام كاهنًا وساعتئذ سأل الله موهبة اللسان . ثمّ التفت الى افرام وكلّمهُ بالسريانيّة قائلًا : قم .

وافرام ايضًا اجابهُ باليونانيّة كما في طقس الرسم عند اليونان قائلًا: نجّني يا ربّ ولتُقمني بيمينك اللهمَّ * وفي اثنآءِ ذلك بلغ افرامَ خبرٌ بانّهُ قد سرت في الرها اضاليل وهرطقات كثيرة ولاسيما البدعة النّاكرة قيامة الاموات والقائلة بالقدر وغير ذلك * فمن ثمَّ ودّع مار باسيليُس غير انّ هذا الراعي الجليل شقّ عليهِ سفر افرام واطلقهُ بسلام * وقال للاقليرس بعد سفرهِ: انّي رأيتُ افرام السريانيّ الطوباويّ قائمًا ويكتنفهُ ملاكان الواحد عن يمينهِ والآخر عن شمالهِ بلباسٍ نيّر ابيض كالثلج. ثمّ ذكر لهم شيئًا كان قد اقتبسهُ منهُ في شان سرّ الثالوث الاقدس *

الفصل التاسع

وصول مار افرام الى مدينة شمشاط — مؤاذاة صبيان مدرسة هراطقة لهُ — موت لاطمهِ — بعثهُ من الموت على يد مار افرام — وصولهُ الى الرها — مقاومتهُ الهراطقة — لطيفة لمار افرام مع زعيم للهراطقة — نشر اضاليلهم باغاني منظومة — استعمال مار افرام هذه الوسيلة عينها وظفرهُ بها — شهرة مصنّفات مار افرام — انتخابهُ اسقفاً — هربهُ من ذلك بتظاهرهِ بالجنون .

امّا ما كان من مار افرام . فانهُ بعد ان قطع سفراً طويلاً بلغ الى مدينة شمشاط التي هي بقرب آمد على نهر الفرات . فصادف معلّم مدرسةٍ للهراطقة وتلاميذهُ يلعبون فسلّم القدّيس عليهم * فلمّا رأوهُ متواضعاً لابساً ثياب

الفقر. تقدّم صبيٌّ منهم ولطمهُ على خدهِ فاضحك الصبيان عليهِ. فلم يجبهُ القديس بشيء* امّا المعلّم فجلس لياكل هو وتلاميذهُ. فخرجت افعى ولسعتْ ذلك الصبيّ الجسور في اليد التي ضرب بها القدّيس فمات لساعتهِ ويبست يدهُ واتّصل خبر عقاب الله المرعب باهل المدينة فلحقوا مع المعلّم بأثر القدّيس وجثوا على ركبهم امامهُ طالبين بتوسّل ان يغفر للصبيّ التعيس ويرحمهُ فاصغى القدّيس الى طلبتهم ورجع الى المائت وامسكهُ بيدهِ وقال ليُقِمْك المسيح ابن الله يا ابني. فنهض لساعتهِ وانتصب سالمًا. فلمّا رأى الجمع تلك الاعجوبة مجّدوا الله ورفضوا ضلالتهم وارعووا* ولمّا وصل افرام

الى الرها شاهد بأسف عظيم انّ ضباب الهرطقات قد غطّى نور الحقّ. اكثر ممّا بلغهُ ولاسيّما انّهُ رأى الفساد الناتج من ضلالة برديصان كما ذكرنا. فاغتار القدّيس بغيرة فنحاس والعازر وجاهد جهادًا ظفر بهِ على اعدآء الله والكنيسة * ومن جملة ما تفنّن بهِ في هذا الجهاد لطيفة قرأناها في سيرة حياتهِ وهي انّهُ بلغهُ يومًا انّ الكتب التي صنّفها أبلّيناريُس (١) المشحونة كفرًا وتجديفًا. كانت

(١) كان أبلّينارِيُس ينكر وجود النفس العاقلة في يسوع مخلّصنا ويزعم انّ جسدهُ اضحى جزءًا من اللاهوت وانّ الآب هو الاكبر من الابن والابن اكبر من روح القدس. فحُرِم في مجمع انطاكية العامّ *

مودَعة عند امراةٍ عجوز لتحفظها * فاحتال مار افرام بحيلة يعقوب اسرائيل على هذا عيسو العاتي اي استعار الكتب من العجوز ليقضي وطرهُ ومن ثمَّ يُعيدها اليها. امّا هي فسلّمتها لهُ بشرط ان يردّها اليها عاجلاً * فلمّا تمكّن القدّيس من الكتب فانّهُ عوضاً عن ان يطالعها كما ظنّت العجوز. الزق اوراقها بعضاً ببعض حتّى اضحت كلّها قطعاً من ورقٍ مطبَّق. ثمّ ردّها الى العجوز وهي لا تعلم بالذي جرى * وكان ابلّيناريُس معتمدًا على هذه الكتب. فانطلق مار افرام وحرّك الناس ليحثّوهُ على الجدال. فاذعن وجآء مع جمّ غفير من اهل حزبهِ فجادلهُ القدّيس وأفحمهُ *

واذ لم يقدر ابلّيناريُس على الجواب التمس كُتبهُ. فاتوهُ بها. فلمّا اراد ان يفتحها بزعجةٍ ولجاجة من كلّ جهاتها ولم يتهيّأ لهُ. امتلأ خجلاً هو ورفقاؤهُ واحتدّ وصرّ اسنانهُ غضباً حتّى انّهُ سقط عليلاً وبعد أيّام قليلة مات من الحزن * وكان حرمون ابن برديصان المبتدع قد تعلّم الشعر عند اليونانيّين وادرجهُ في اللّغة السريانيّة. فالّف قصائد واغانيّ سريانيّة وبثّ اضاليلهُ فيها. وعلّمها للاحداث حتّى سرى سمّها في قلوبهم اذ كانوا يتداولونها ويترنّمون بها * فتفنّن مار افرام بغيرة مقدّسة وتعلّم اوزان الشعر بنشاطهِ الفريد وصنّف هو ايضاً مقالاتهِ كلّها بقصائد ومداريش روحانيّة

على اوزانٍ والحان مختلفة وعلّمها للنسآء والعذراى المنذورات لله وللصبيان فكانوا يجتمعون في الكنائس والمحافل في ايّام الاحد والعيد ويرتّلونها . فتقاطر افواج الناس من كلّ ناحية ليستمعوها وكانت تنطبع تلك المعانيّ القدسيّة في عقولهم . وهكذا تهيّأ للملفان القدّيس ان يقاوم ذلك اللّعين وينسّي الناس ما كانوا قد تعلّموهُ من قصائدِ الشنيعة * ولم تزل الكنيسة السريانيّة من سريانٍ وكلدانٍ وموارنة حافظةً الى الآن اناشيدهُ التقويّة . وتلهج فيها كلّ يوم في طقس صلواتها وتسابيحها . وليس في الرها وفي الكنيسة السريانيّة فقط . بل في المسكونة كلّها فاحت الروائح من عطر

قداستهِ واخبار تعاليمهِ وتُرجمت الى اللّغة اليونانيّة منذ كان هو حيًّا . ثمّ بعد ذلك الى سائر لغات الارض . وتكفينا في ذلك شهادة مارهيرونموس الملفان . فانهُ قال : انّ القدّيس افرام السريانيّ شمّاس بيعة الرها اشتهر شهرةً عظيمة حتى انّ مؤلّفاتهِ صارت تُقرَأُ في كنائس كثيرة بعد قراءَة الكتاب المقدّس *

ثمّ انّ القدّيس باسيليُس احبّ واختار ان يسيم افرام اسقفًا . فسيّر اليهِ رسولَين اسم الواحد ثاوفيلس والآخر توما ليبلّغا اليهِ الدعوة * فاذ شعر القدّيس بسفرهما وقدومهما الى الرها لاجلهِ . افتكر ان يجد سبيلاً ينجو بهِ من هذهِ الوظيفة الرهيبة * فتظاهر بالجنون

امام الرسولَين . وأخذ يجري في الازقّة ساحبًا ثيابهُ وعاملاً اعمال الصبيان الذين لاعقل لهم * فلمّا وجداهُ في هذهِ الحالة احتقراهُ وانقلبا الى راعيهما وقصّا عليهِ القصّة * فبكى الاب القدّيس وقال : المجنون بكما اولى يا اولادي . فانّ افرام جوهرة قليلة الوجود عزيزة الثمن وقد احتجب بحجاب التواضع العميق عن اعين الناس واختار ان يدرس الفضيلة والحكمة ويكون حبيبًا في اعين الله *

الفصل العاشر

رجوع مار افرام الى الجبل – التجآء امراة تائبة اليهِ بعث بها مار باسيليُس – حدوث غلآء في الرها – نزول مار افرام ومساعدتهُ للفقرآء .

وفي اثنآء ذلك تقدَّمت امراةٌ لتعترف بخطاياها امام مار باسيليُس وكانت لخجلها الشديد قد كتبتها في قرطاس وقدَّمتها لهُ . وانطرحت على الارض وكانت تسألهُ ان يصلّي لاجلها ويطلب من المسيح مغفرة خطاياها . امَّا القدّيس باسيليُس فالقى القرطاس قدَّام المذبح وشرع يبتهل الى الله تعالى في شانها . وبعد ذلك فتح القرطاس فوجد قد مُحِيت

كتابة خطاياها غير خطيّة واحدة . وهكذا الله غفر لها آثامها سندًا على صلوة الراعي القدّيس وإيمانها الحيّ . ثمّ دُفع القرطاس الى المرأة فوجدت قد بقي فيهِ رسم خطيّة لا غير . فحينئذٍ اخذت تتنهّد وتبكي بكآء مرًّا وتبتهل الى القدّيس ان يُشفق عليها وانّهُ مثلما غفر لها خطاياها بمعونة المسيح كذلك تُمحى خطيّتها الباقي رسمها في القرطاس * وامّا القدّيس فاجابها قائلاً : اصغي يا ابنتي الى ما اقولهُ لكِ ان رُمتِ ان تُغفَر لكِ هذه الخطيّة فعليكِ ان تسافري الى جبل الرها فانكِ ستجدين في مغارة صغيرة رجلاً حبيسًا جليلاً كاملاً في الروحيّات يُدعى افرام . فغبّ ان تُدركيهِ ألقي قدّامهُ

قرطاسكِ واسأليهِ ان يصلّي الى الله في شان خطيّتكِ * فلمّا سمعت ذلك المرأة تزوّدت بصلوة القدّيس باسيليُس وجرت مسرعة الى جبل القدّيس افرام بعد ما كابدت مشقّات سفر طويل. فلمّا ادركتهُ القت قرطاسها من كوّة المغارة واخذت تصرخ باكيةً وتقول . ارحمني يا عبد الله فانّ مار باسيليُس ارسلني اليك وقصّت لهُ امرها . فامّا افرام اجابها قائلاً اسمعيني يا ابنتي أنّني رجل خاطئ ومحجوب ولا تُعنّي نفسكِ . فانّ ذلك الذي كانت لهُ استطاعة ان يغفر لكِ خطاياكِ الكثيرة لهُ استطاعة ايضًا ان يغفر لكِ هذه خطيّتكِ الوحيدة . فانقلبي اليهِ مسرعةً لعلّكِ تجدينهُ

حيًّا لانّ يوم مبارحتهِ هذا العالم قد دنا . امّا المرأة فاذ سمعت هذا اعترتها رعبة وخوف شديد واخذت تُجهد نفسها في السفر وبعد بذل الجهد واستفراغ الوسع ادركت قيسريّة فلمّا دخلتها إذا بجنازة القدّيس الاسقفّ تُشيَّع الى الكنيسة وقد حملها الكهنة والشمامسة . ولمّا انتهوا بها الى صحن الكنيسة دخلت المرأة كمخبّلة وهي تولول وتقول : يا قدّيس المسيح اما كانت الك استطاعة ان تغفر لي خطيّتي هذه فعلى مَ عنّيتني واجهدتني سفرًا ذهابًا وايابًا . وفي هذه الاثناء القت قرطاسها على جنازتهِ . وشرعت تعترف بخطاياها بصوت جَهْوَريّ . ومن ثَمَّ تقدّم احد الشمامسة واخذ القرطاس

ليرى ما هي الخطيّة الباقي رسمها فيهِ. فلمّا فضهُ لم يجد فيهِ اثر كتابة. فهتف قائلاً يا امرأة عظيم هو ايمانكِ سرّي وابتهجي فانّ خطاياكِ قد غُفرت لكِ. دونكِ قرطاسكِ فقد مُحيَ ما كان عليهِ. وهكذا صار معلوماً لدى كلّ احد انّ خطاياها غُفرت لها بواسطة صلوة مار افرام ومار باسيليُس المعظّم ✲ امّا مار افرام فلمّا شعر برقاد مار باسيليُس اسف عليهِ اسفاً شديداً ولاسيّما لانّ رعيّتهُ حُرمت مشاهدتَهُ. نعم انّها حُرمت مشاهدتهُ غير انّها لم تُحرَم من صلواتهِ لانّهُ قريب لكلّ من يلتجئ اليهِ. فمن ثمّ رثاه مار افرام بقصائد ومقالات رائقة واثنى عليهِ ✲

وكان من بعد الاضطهاد الذي اثارهُ واليس الملك الآريوسيّ على الكاثوليك وطردهِ الاقليرس من الرها . حدث في الرها غلآءٌ وجوعٌ شديد حتّى كادت الفقرآء تهلك جوعًا * فلمّا بلغ هذا الخبر مسامع القدّيس . اتّقدت غيرتهُ ومحبّتهُ نحو اخوتهِ الفقرآء ونزل الى المدينة واخذ يعظ الاغنيآء ويحرّضهم ويبيّن لهم انّهُ فرضٌ عليهم وحقّ واجب ان يطعموا الجياع ويكسوا البائسين وان لا يخسروا الفرصة التي اعطاها الله لهم ليشتروا بها الملكوت الفائق كلّ ثمن بارخص الاثمان * فاحتجّوا انهُ لا يوجد من يلتزم امر التوزيع ويكون امينًا . لانّ القسوس الكاثُليكيّين كانوا قد طُرِدوا * فتوكلّ

هو بنفسهِ على توزيع الصدقات وجمع شيئًا كثيرًا . واخذ يساعد الفقرآء ويطعم الجياع ويكسي العراة ويداري المرضى والمتضايقين ويشجّع المساكين . وقيل انّهُ جمع في بيتٍ واسع الفًا وثلاثمائة فراش واقام فيهِ اشخاصًا من الاتقيآء ليساعدوهُ ويداروا معهُ المرضى ويفتقدوا المحتاجين . واستمرّ في هذا العمل الى ان ارتفعت المجاعة فزادت محبّتهُ في قلوب الخاصّة والعامّة * ثمّ عاد الى الوحدة في صومعتهِ *

الفصل الحادي عشر

علم مار افرام بقرب المنيّة — جمعهُ تلاميذهُ وتقريرهُ وصيّتهُ الاخيرة لهم .

ولمّا حان زمان رحيل مار افرام من ارض الشقآء ورأى منيّتهُ قريبةً . دعا اليهِ تلاميذهُ وسائر من كان في القرب منهُ من رهبان ونسّاك واقليرس فمثلوا بين يديهِ وتقاطر معهم جمٌّ غفير من اهل المدينة وقرّر بين ايديهم وصيّتهُ الاخيرة الشهيرة * وقال فيها :

انا افرام مائت وكاتب وصيّةً لتبقى ذكرًا لكلّ احد ممّا املكهُ * الويل لي انّ حياتي قد دنت الى الزوال . قد دنا النسيج الى

القطع ونفِذ الزيت من السراج * قد قضى الاجير سنتّهُ: احتاطتني الجنود وجاءني من هنا وهنا الذين ياخذوني * الويل لك يا افرام في يوم الدين اذا وقفتَ قدّام منبر ابن الله. ويكون معارفك حولك من عن يمينك ومن عن شمالك. فالويل لك من الخزي الذي سيحصل لك * يا يسوع كن انت ديّاناً لافرام. ولا تسلّم دينونتهُ لغيرك. لانّي سمعتُ من الحكماء انّ الذي يرى وجه الملك لا يخزى ولو كان مذنباً * اوصيكم يا اخوتي ان تذكروني في الصلوات والطلبات. فانا مائت لا محالة والسرير الذي انا مطروح عليهِ لن اقوم منهُ * انّي ما شتمتُ احدًا في الليل وفي حياتي

كلّها ما خاصمتُ احدًا ولكنّي ما برحتُ اجادل الكفّار . فانّ الكلب اذا راى الذئب مقبلاً على الغنم ولم يخرج لينبحهُ . يجلدهُ صاحب الغنم * اقسم بالذي قال ايلي فارتجّت البرايا كلّها انّي ما شكّيتُ قط في البيعة ولا في قوّة الله * بحياتكم يا تلاميذي وبحياة افرام انّ افرام لم يملك شيئًا * فتعالوا ودّعوني لانطلق بالسلام . واذكروني في الصلوة والطلبة * لا تقبروني تحت المذبح لانّهُ سمجٌ ان يوضع في مكانٍ مقدّس من هو مكروه الرائحة . ولا تدفنوني في الهيكل لانّ الكرامة لا تنفع من لا يستحقّها * لو ظهرتْ لكم عيوبي لبصقتم كلّكم في وجهي . انّي خاطئ فلا يغبطني احد ولا يضع

احدٌ في جنازتي خزًّا او ثوبًا فاخرًا بل اقبروني بقميصي وقُبَّعتي فانّ الخطايا كلّها موجودة فيَّ * حيّهل يا ايّها الرهاويّون يا ساداتي واولادي وابآءي هاتوا ما نذرتم ان تضعوهُ في جنازة اخيكم هاتوهُ فنبيعهُ فيوزَّع ثمنهُ على الفقرآء والمساكين فيكون لي ولكم من ذلك فائدة . انّي اشكر فضلكم يا اخوتي على انكم نذرتم لي هذه الكرامات . وانّني لا استحقّ ذلك فقد قضيتُ عمري بالخطايا[1] بركة الله تحلّ على المدينة التي انتم ساكنوها * يا مدينة الرها امّ الحكمآء عليكِ تلك البركة التي أتتكِ من المسيح بيد تلميذهِ[2] وتلازمكِ الى يوم ظهورهِ *

(١) هذا من باب الاتّضاع. (٢) كان ابجر ملك

لا يحمل احد شمعةً قدّامي وايّ نفعٍ من النار لمن نارهُ فيهِ * لا تضعوا في جنازتي طيوبًا فانّ ذلك لا ينفعني. بل عطروا الروائح الذكيّة في المقدس. واما انا فشيّعوني بالصلوة: لله العطور ولي المزامير * لا تدفنوني في قبوركم فانّي قد عاهدتُ الهي ان أُدفن في مقبرة الغرباء فانّي غريب مثلهم * تعالوا يا اخوتي

الرها المعاصر لسيّدنا يسوع المسيح قد ارسل رسولاً اسمهُ حنّان الى سيّدنا يسوع المسيح مع رسالةٍ يطلب فيها البركة منهُ ويدعوهُ الى الرها وياخذ صورتهُ. فتعذّر الربّ من ذلك بلطفهِ ووعدهُ ان يرسل لهُ بعد صعودهِ الى السماء بركتهُ مع احد تلاميذهِ. فصحّ ذلك بانذار مار اداي الرسول في الرها بعد صعود المسيح واهداها الى الايمان *

مدّدوني فانّ الساعة قد دنت . زوّدوني بالصلوات والمزامير والقرابين. واذا انقضت الثلاثون يوماً فاذكروني يا اخوتي لانّ الاموات ينتفعون من القرابين التي تصنعها الاحياء * فانهُ ان كان جيوش المقابيّين الذين سقطوا في الحرب قد غُفِرت زلّاتهم بالقرابين . فبكم احرى كهنة المسيح ان يكفّروا عن ذنوب الموتى بقرابينهم وصلواتهم * تعالوا يا تلاميذي وخذوا البركة بسلطان الراعي المبارك . فان كنتُ انا لستُ مثل نوح وملكصاداق فكونوا انتم مباركين مثل سام ويافث ومثل ابرهيم . يا ايّها الانبا[1] ليعظّم المسيح ذكرك .

(١) يشير الى رئيس الرهبان .

يا ابرهيم ليباركك الله اله ابرهيم * يا شمعون . ليسمعك الله كلما دعوته في الصلوة . يا ماري الاجاليّ . انك تبعتني بالضيق فليجزل الربّ اجرك * يا زينوب الجزريّ لتكن كلمتك كالنار وتاكل قشّ الاديان الكاذبة * يا فولونا[1] .الويل للامّ التي ولدتك لانّك اتّبعتَ جميع الاديان وتجسّست كلّ المسائل . انّك اتّكلت على قصبةٍ مرضوضةٍ وتركت عصا الصليب * يا ارواط . ليُمحَ ذكرك من بين الاحياء . لانّك تركت خمر المسيح وشربت عكر الخطية * يا ايّها الآريوسيّون والمانيّون والقاثريّون والحاويّون والمرقيانيّون والاوناميّون

(١) زعيم الهراطقة .

والبرديصانيّون والقوقيّون وسائر اصناف المذاهب السمجة . ليكن مباركًا ذلك الذي اختار الكنيسة المقدّسة وجعلها نعجةً لم تقدر الذئاب ان تنهشها . وحمامةً لم يقدر الصقر ان يدنو منها * اثبتوا يا تلاميذي على تعليمي ولا تنتقلوا من معتقَدي . من يشكّ في البيعة يبرص جسمهُ مثل جحزي ومن يترك معتقَدي يُمسكهُ حبل يهوذا * اكتبوا كلماتي على قلوبكم واذكروني لانّهُ سيأتيكم بعدي اشرار بلباس الحملان من خارج وهم من داخل ذئابٌ خاطفة. ودّعتكِ يا ارض بسلام. ويا بني الارض في فرح * ليملك الصلح في البيعة وليبطل اذى الاشرار . وليكن اهل الشرور ابرارًا . والخطاة تائبين *

الفصل الثاني عشر

حزن الرهاويّين على فقدهم مار افرام — حزن ابنة الوالي ونذرها — عقاب رجل لمخالفتهِ وصيّة مار افرام — كلمات مار افرام الاخيرة — وصف هيئتهِ — فضائلهُ بوجه العموم ·

بينما كان افرام يتكلّم بهذا الكلام . كان الشعب كلّهُ يبكي * وكان ثمَّ ابنةٌ لرئيس الرها. فهذهِ لم يمكنها ان تحبس بكاءها . فاقبلت وهي تولول وتنوح وتقول : يا للداهية التي اصابت اليوم وطننا التعيس : اليوم انطفأ سراج مدينة ابجر حبيب المسيح * ثمّ انّها اقتحمت الشعب فاتت والقت نفسها على صدر القدّيس وقالت

لهُ : اقسم عليك بذلك الذي هو حالٌ ومتكلّم فيك ان تاذن لنا ان نضع جسدك في جرنٍ جديد قد اعددتهُ لك . ثمّ جسدي في جرنٍ آخر عند رجليك فاتبعك الى حيث تمضي ولا انفكّ منك * فاجابها القدّيس بتخافت : اذهبي عني يا صبيةّ . بارك الله ذكركِ . انّ طلبتكِ تسجّسني . لكنّي لا اريد ان اطلقكِ خائبة . فلتكن طلبتكِ لكِ ولغيركِ بشرط ان لا تجعلي الجرن من رخام ولا تتزخرفي اكثر مّما يليق * وفي اثناء ذلك كان رجلٌ شيخ . محبًّا لافرام . فأتى بثوبٍ من حرير ليلفّ بهِ جثّة القدّيس خلافًا لوصيّتهِ . فاعتراهُ شيطان وطفق يخبط ويزبّد شدقهُ . فحنّ القدّيس عليهِ ولمسهُ بيدهِ وصلّى عليهِ

فتركهُ الخبيث لساعتهِ *

ثمَّ لم يزل القدّيس يعظ الحاضرين ويحثّهم على محبّة الله وتقواهُ حتّى قضى نحبهُ. فصلَّب ذراعيهِ على صدرهِ. واحدق بعينيهِ الى السمآء واسلم روحهُ الطاهرة بيد خالقها وانتقل الى مينآء الامان في الملكوت السماويّ بازآء العزّة الالهيّة مع شركة الطوباويّين. بينما كان فمهُ لا يفتر من الصلوة * وكانت وفاتهُ في ١٨ حزيران سنة ٣٧٣ في عهد واليس الملك * فجنّزهُ جماعة الاقليرس بالتسابيح والمزامير. ودفنوهُ طبق وصيّتهِ * ثمّ بعد زمانٍ فتحوا ضريحهُ ففاحت منهُ روائح ذكيّة سماويّة. وظهرت الآيات والكرامات عليهِ. ثمّ وضعوهُ في قبرٍ

آخر بُنيت عليهِ كنيسة على اسمهِ لانّ قداستهُ كانت قد شاعت في العالم المسيحيّ كلّهِ .

وكان مار افرام على ما يُقال معتدل القامة حسن الصورة واسع الجبهة قليل الذقن ذا هيبةٍ ووقار. وكان حسن جسدهِ وشكلهِ الظاهر يدلّ على جمال روحهِ الباطن. فانّها كانت مزينّةً في كلّ الفضائل * وذلك نعلمهُ من شهادة المعاصرين لهُ ومن سيرة حياتهِ ومن مؤلّفاتهِ وكتبهِ * فمن يمكنهُ ان يقرأ تصانيفهُ ولا يتعجّب (كما شهد القدّيس غريغوريوس نيصص) : من ايمانهِ ورجائهِ ومحبّتهِ . واكثارهِ من التأمّل في الكتاب المقدّس . ومحبّتهِ العلوم وفصاحتهِ البديعة . ونقاوة نفسهِ وجسدهِ .

وتواضعهِ العميق الفريد . وفقرهِ الاختياريّ وصلاتهِ .ودموعهِ وسهرهِ على الحضيض ورحمتهِ الزائدة ووداعتهِ وغيرتهِ المضطرمة ضدّ محاربي الديانة * امّا مار يوحنّا فم الذهب اسقف القسطنطينيّة فوصفهُ وقال : انّ القدّيس افرام منبّه الغافلين معزّيِ الحزانى مهذّب الشبّان سلاحٌ قويٌ لردع الهراطقة . محوى الفضائل مأوى روح القدس ومسكن الله * وبالنتيجة نقول انّ فضائل القدّيس مار افرام المعظّم لا نتمكّن من احصائها فكيف نتمكّن من وصفها . فحسبنا اذًا نقتصّ طرفًا منها *

الفصل الثالث عشر

ايمان مار افرام – رجاؤهُ – محبّتهُ

امّا ايمان القدّيس افرام فقد بالغ في التمسّك بهِ واكثر من ذكرهِ في مؤلّفاتهِ حتى انّهُ ما صنَّف كتاباً الّا وبيّن فيهِ بعباراتٍ فصيحةٍ بديعةٍ حقيقة كنيسة المسيح ودحض الهراطقة المعاندين لها وفنّد اقوالهم واخزاهم * ولمّا كانت ابواب الجحيم لا تزال تحارب بيعة الله حتّى تصرف نظر البشر عن الاتّفاق اللّازم في كنيسة المسيح المقدّسة وتحثّهم على العصيان عليها وعلى الفحص الفضوليّ الخطِر عن معتقدها : رأينا نحن ان نذكر شيئاً ممّا جاء من مصنَّفات مار افرام في

هذا المعنى * فقال : انّ المعلّمين الكاذبين تظاهروا امام عروس المسيح بحسن مغشوش وهو لطافة اقوالهم * ولا غرو فانّ الذي يروم ان يخدع امرأة مولاهُ شأنهُ ان يتزخرف ويتزيّن * وامّا اولئك فقباحتهم بائنة ولو انهّم تزيّنوا وادّهنوا . فانّ تواضع يسوع اجمل من حسنِ الخلائق قاطبةً * فهلمّ نبصر عند من هو تعليم الرسل . فانّ الرسل ما سَمَّوا عروس المسيح باسمآئهم لانّ المعلّم الذي يضع اسمهُ على قطيع المسيح . يظهر انّ تعليمهُ بعيد من تعليم الرسل . وامّا الذي يسمّي تلاميذهُ باسم مولاهُ . فيبيّن انّ الحقّ عندهُ . فانّك ترى انّ المتهتّكين ارعووا وكفروا باسماء مقدّميهم . واعترفوا بمعلّم

الحقّ . واماّ التلاميذ الذين صاروا زوأنا في كنيسة المسيح فيسمّون نفسهم باسم اناسٍ ضالّين * انّ الرسل لم يفعلوا هكذا . بل اذ كانوا قد خُطبوا للكنيسة . لم يخونوا الختن . اذ سمعوا الغنم تقول : انا من كيفا او انا من بولس او انا من افلّو خافوا كالعبيد الامينين ومنعوا الرعيّة ان تسمَّى باسماءهم * انّ الدينار لا يُضرَب الاّ بصورة الملك . ولا يقدر قائد عسكرهِ ان يرسم صورة نفسهِ ولو في فلسٍ واحدٍ . فاذا تجاسر المتوكّل على ضرب دراهم الملك ان يطبع صورة نفسهِ . استحقّ ان يُعاقَب بالحريق او التقطيع * وهكذا من يتجاسر ان يرسم صورتهُ على سكّة المسيح بدل صورة المسيح * ولنا ان

نسأل المتمرّدين على بيعة الله : من هو الذي اعطاهم رسم الكهنوت . فان كانوا قد اخذوهُ منّا . فهذا بيّنة وحجّة على تعليمهم . وان كانوا قد تجاسروا وانتحلوا من نفسهم الكهنوت لنفسهم . فهذا بيّنةٌ قاطعة على ملامتهم وخزيهم . أَيكون اذًا كلّ انسانٍ كاهنًا بوضع يدهِ على راس نفسهِ * يا للبلبلة يا للشناعة . انّ المسيح اعطى الكهنوت لرسلهِ . وتسلسلُ هذا الكهنوت متواتر في كنيستنا . والرسل اقاموا للكنائس رؤساءَ وقسوسًا وشمامسة ومعلّمين وقارئين وشمّاسات * وامّا الهراطقة فأخذوا الكهنوت منّا . وسرقوا من البيعة الترتيب الواجب لقضاءَ الخدمات المختلفة بان يكهّنوا ويصبغوا بالمعموديّة ويكسروا

الخبز ويعلّموا وينذروا * وكان من عادة القدّيس ان يقول: انّ من يلتمس الحقّ بجسدهِ. فهذا وان صادفهُ. لا يعرفهُ *

ثمّ انّهُ بعد ان دحض الهرطقات والهراطقة بوجه العموم بهذه البراهين الاساسيّة. كان يفنّد الاضاليل كلّاً بمفردهِ بفصاحةٍ وغيرةٍ فريدة كأنّ المسيح نفسهُ جآء يثبّت كنيستهُ ويوضّح تعاليمها ويميّز رعيّتهُ الحقيقيّة من المارقة والكاذبة *

وامّا رجاؤهُ فكان وطيدًا في الله تعالى وحدهُ. حتّى كان يكرّر في جميع اقوالهِ وافعالهِ هذه الآية من المزمور: ايّاك يا ربّ رجوتُ. انت تستجيب لي يا ربّي والهي *

وكان قلبهُ مغرمًا بحبّ الههِ حتّى انهُ لا يستطيع احد ان يقرأ موءلّفاتهِ الاّ ويشعر بجاذب قويّ يجذبهُ الى محبّة الله. وحبًّا بهِ صبر على اذى كثير. ومن فواضل حبهِ لله احبّ قريبهُ وذلك بواسطة المشورات والنصائح والوعظ. والبائسين بطلب الصدقة لاجلهم كما مرّ بك. والسقمآء بالدعآء وطلب الشفآء لهم من الله * يُحكى انهُ كان داخلاً ذات يومٍ في كنيسة مار توما في الرها. فلقي مقعدًا هناك. فهذا استعطى القدّيس. فاجابهُ مثل مار بطرس: ليس لي فضة ولا ذهب لاعطيك. بل اقول لك باسم يسوع المسيح قم وامشِ. واقامهُ بيدهِ فشُفي لوقتهِ ودخل معهُ وصلّى

وشكر الله وباركهُ واضحى عجبًا في مدينة الرها كلّها *

الفصل الرابع عشر

اعتكاف مار افرام على قرآءة الكتب المقدّسة وتأمّلهُ فيها – ذكر بعض مصنّفاتهِ – فصاحتهُ

وكان مار افرام ينصبّ باعتكافٍ لا مثيل لهُ على مطالعة الكتب المقدّسة ويكثر من التأمّل بها . ومنذ بلغ اشدّهُ وهو بعدُ في قلاّية معلّمهِ مار يعقوب حفظ مزامير داود بنشاطٍ عجيب حتّى انّهُ حالما حصل على الانفراد والراحة فسّر الكتاب المقدّس بجملتهِ من سفر

التكوين الى اخر سفر من العهد الجديد * والقارئ اذا فحصهُ لايشكّ بإلهام روح القدس في تفسيرهِ * وينذهل منهُ كيف انّهُ علم منذ ذلك الزمان علم التفاسير الذي يعلّمهُ علماء زماننا مثل تعليم جديد . اعني تميز التفسير الحرفيّ والمعنويّ والرمزيّ * مثال ذلك معنى فردوس عدن . وبرج بابل وتبلبل الالسن ومثل الكرم الذي ذكرهُ اشعيا وخبر شمشون ومسألتهُ ومثل الانسان النازل من اورشليم الى ايريحا وغير ذلك كيف انّهُ انتج منها المعاني الشافية التي منها تتّضح اسرار الخلاص الالهيّ وكيفيّة ممارسة الفضائل المسيحيّة . وكان نظم الشعر عند مار افرام طبيعيًّا * فكتب كتبًا

ومقالات كثيرة في كلّ فنٍّ ومعنى كلّها او اغلبها منظومة . حتّى انهُ اجرى مثل ذلك في وصيّتهِ الاخيرة نفسها * وكتب عدا ما ذكرنا عن حصار نصيبين وعن مار يعقوب وقسطنطين الملك وعن غوريا وشامونا وحبيب شهدآء الرها وعن يُليانُس الجاحد واضطهادهِ الاساقفة وثبات الرهاويّين . وعن يوبنيانُس ونجاة مدينة الرها من القتل بصلاتهِ هو واهل المدينة امام ايقونة مريم العذرآء . ثمّ على نصبهِ قيصرًا . وضدّ الفاحصين الجسورين واليهود والهراطقة المذكورين سابقًا * وبذلك عظّم شأن الكنيسة السريانيّة وانارها مثل نورٍ ساطع بالانوار السماويّة المنبعثة من مصنّفاتهِ

العجيبة الباهرة التي لا يقدر عادٌّ ان يعدّها او
يستقصيها . وكان الله قد سبق واشار عنها
برؤيا الكرمة التي خرجت من لسان القدّيس
عندما كان طفلاً وغطّت المسكونة كلّها كما
ذكرنا * حتّى انّهُ بعد كلّ ما بذلهُ اهل العلم
من الهمّة والتعب والدرس في اقتفاء الحكمة .
يوجد الى الآن كثير منها خفيٌّ عن معرفة
الفهماء * وامّا المعاني التي ضمّنها مار افرام في
مؤلّفاتهِ . فلا يمكن حصرها بالكلام . فانّهُ لم
يترك من ابواب الدين والسيرة الرهبانيّة وغير
ذلك الاّ انشأ فيهِ مقالات عجيبة باسهاب
واطناب * وممّا فاق وسما بهِ مار افرام على غيرهِ
هو انّهُ كان يحصر معاني كثيرة في كلمات

وجيزة كما يظهر لمطالع مقالاتهِ السريانيّة * وربّما اضطرّ مستخرج كتبهِ الى لغةٍ اجنبيّة ان يعبّر بكلمات كثيرة ما قالهُ هو بوجيز الكلام * ووهبهُ الله نعمة الكلام مع الفصاحة العجيبة التي يعزّ وجودها * وكانت اسرار الايمان الغويصة تتّضح في عقلهِ الصافي الرصين . وكانت فصاحتهُ تعبّر عن كلٍّ منها باستعدادٍ عجيب وبلاغةٍ ربّما سبقت تصوّر عقلهِ . وكان القدّيس ينسب ذلك جهرًا الى النعمة الالهيّة التي كان الله يسكبها عليهِ بفيضانٍ غزير. حتّى افضى بهِ الامر الى ان يصرخ احيانًا ويقول: حسبي يا ربّ حسبي . ها انّ احضاني قد امتلأت من نثر بركتك ولم يبقَ مكان . ها قد زادت . فصُدّ

موهبتك . واحفظها وديعةً في كنزك . ثمَّ عُد فردَّها في وقت الحاجة عليَّ * وكانت الناس تتقاطر برغبةٍ الى استماع خطبهِ . وينذهلون من بلاغة نطقهِ ويوقنون بإِلهام روح القدس لهُ حتَّى كانوا يصفونهُ بكنَّارة روح القدس *

الفصل الخامس عشر

نقاوة مار افرام— تواضعهُ — محبتهُ للفقرآء.

واما نقاوة روح مار افرام الطاهرة فالاجدر ان تُدعى ملاكيَّة ويكفينا ان نستدلَّ عنها مما ظهر من دلّهِ وشكلهِ من العفَّة * فمن ذلك انَّ امرأة فاجرة تجاسرت وراودتهُ يوماً

عن نفسهِ فاجابها القدّيس الى ذلك بشرط ان يُقضى الامر في السوق . فاجابتهُ وكيف نقدر والناس يروننا . قال فكيف في مكانٍ سواه والله يرانا : اما تخافين من الله الموجود في كلّ مكان الذي ينبغي ان نكرمهُ ونخشاهُ اكثر من الناس * ثمّ انّهُ نصحها وارشدها حتّى حرّك قلبها الى التوبة والرجوع الى الله * ويوماً آخر بينما كان افرام يطبخ طبيخاً . استشرفت عليهِ امرأةٌ من نافذة الجدار وسألتهُ : كيف هو الطبيخ وماذا يعوزهُ . فاجابها . لا يعوزهُ سوى ثلاثة حجارة وقليل من الطين . لأسدّ هذهِ النافذة * فخزيت المرأة وولّت مدبرةً *

وكان تواضعهُ عميقاً فريداً لم يُذكر من

بعد يسوع المسيح مخلّصنا وفادينا انّ احدًا
فاقهُ فيهِ * وكان يكثر من ذكرهِ وتحريضهِ
الرهبان والجماعة في عظاتهِ وكتبهِ على استعمالهِ.
فاذا داهمهُ فكر كبرياء. كان يطردهُ بتذكّرهِ
تواضع المسيح بالدموع. ولشدّة اتّضاعهِ قال
ايضًا عند مبارحتهِ العالم لا تجعلوا جسدي
في قماش ثمين ولا تلحدوهُ في مقبرتكم لانّني خاطئ
وغريب * هذا كان اساس فضائلهِ وسبب
المواهب التي حصل عليها * وكانت محبّتهُ
للفقر لا توصف حتّى انهُ كان كاسيًا بالخُلقان
وثياب الذلّ طول عمرهِ * وكان يحبّ الفقراء
اخوة يسوع المسيح ويتحنّن عليهم * ومن حيث
انّهُ كان لم يملك شيئًا كما شهد في وصيّتهِ

الاخيرة . فكان يحثّ الآخرين على سدّ احتياجات اخوة المسيح *

الفصل السادس عشر

صلوات مار افرام — صومهُ وتقشّفهُ — كسر ارادتهِ — غيرتهُ — حلمهُ — وداعتهُ — تعبّدهُ لمريم امّ الله — ذكر بعض معجزات حدثت بعد موتهِ — خاتمة الكلام .

وكان مار افرام يدمن كثيرًا على الصلوة . وفيها كانت الدموع تهطل من عينيهِ بحرارةٍ توبةً عن خطاياهُ كزعمهِ وعن خطايا الشعب المسيحيّ كلّهِ . مع انهُ في عمرهِ كلّهِ لم يسقط سوى في زلّتين كما شهد عنهُ المؤرّخون

القدماء: الاولى تهزيمهُ البقرة في سني صباهُ. كما سبق القول. والثانية ريبةٌ في وجود العناية الالهيَّة *

امَّا صومهُ فكان متَّصلاً وكان اذا اكل لم يتجاوز اكل خبز الشعير والماء وبعض البقول المطبوخة وذلك طول حياتهِ. وكان يقضي الليالي بتمامها في السهر والتسبيح حتَّى انَّهُ قلَّما كان يجدهُ الرهبان القريبين منهُ نائمًا. بل كانوا يسمعون دائمًا صوت تلاوتهِ المزامير. فاذا غلبهُ النعاس كان ينطرح على الحضيض ويبلّهُ بدموعهِ وربَّما لهم التراب تشبُّهًا بالنبيّ داود * وكان رحومًا حنونًا على الفقراء والبائسين * ومع انَّهُ كان في الاصل حادّ الطبع سريع الغضب. فغصب نفسهُ وقهرها

فصار وديعاً حليماً حتّى لم يُذكَر عنهُ في حياتهِ المسيحيَّة كلّها انَّهُ غضب . ولشدة تنازلهِ وملاطفتهِ الناس كان كلّ من يصادفهُ مهما كان غليظ الطبع او مصرًّا على الاثم يخجل منهُ ويلين ويرعوي الى التوبة *

وكانت غيرتهُ مضطرمةً في توضيح الحقّ ودحض الباطل اذ كان فيها يحاكي قانص الوحوش الذي يلاطف تارةً ويرمي اخرى . ومن ذلك حدث انّهُ لصّق اوراق كُتُب الهراطقة بعضها ببعض واخزاهم في محفل عظيم * فكان يستعمل تارةً الحلم والوداعة مع الهراطقة والخطاة . ويتسلّح تارةً بالصرامة والردع حينما كان يرى خطرًا في الدين . هذا وانّهُ

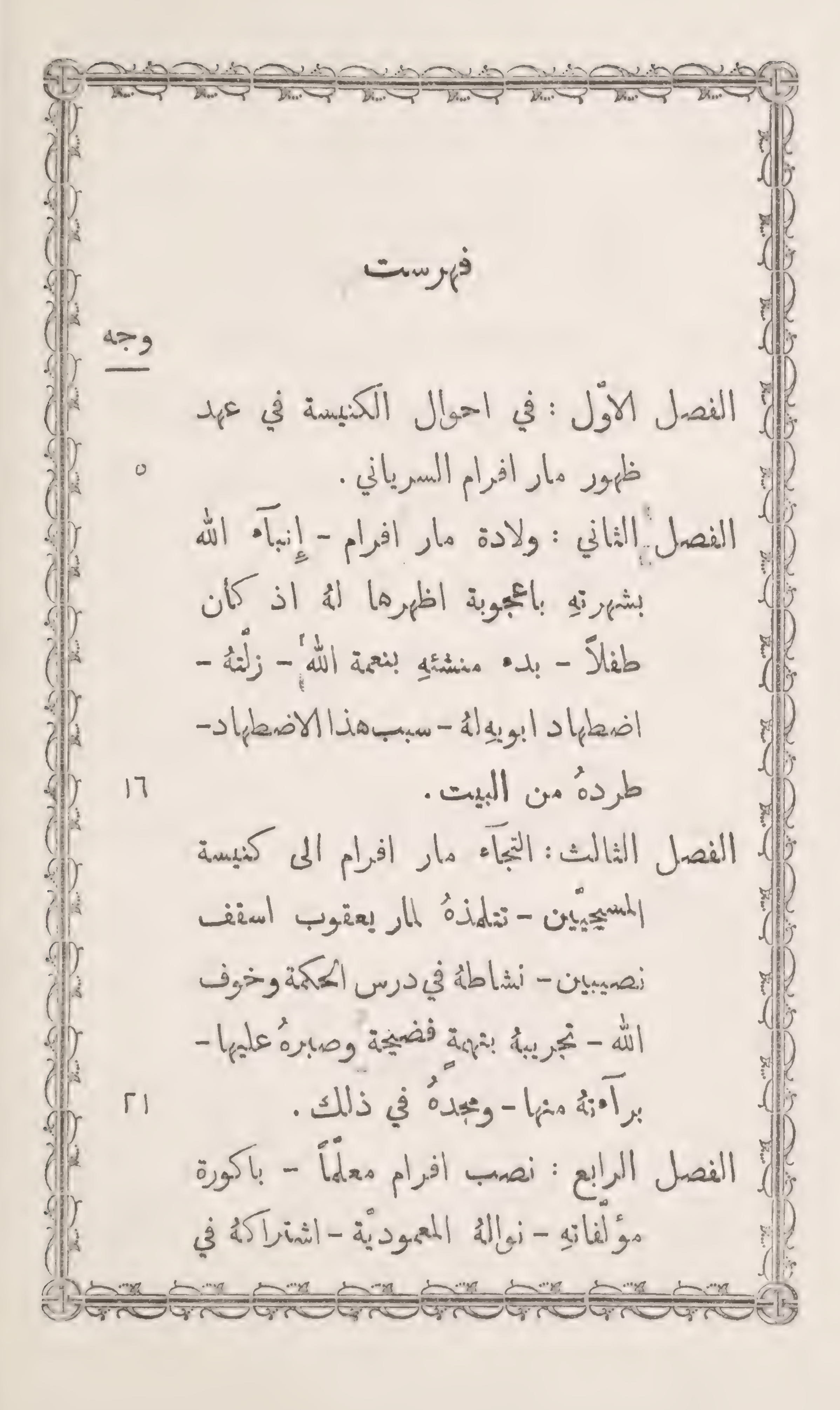
في الخلوة كان يصلّي لاجلهم * فعلى هذا قد صحّ فيهِ ما قيل في معلّمهِ السيّد المسيح انّ غيرة بيت الله اكلتهُ *

واشتهر مار افرام ايضًا بتعبّدهِ لمريم البتول فكتب عنها واثنى بقصائدهِ عليها واطنب في مديحها كثيرًا * حتّى انّك قلّما ترى كتابًا يخبّر عن امجاد مريم وفضائلها الاّ ويكون قد قطف شيئًا من حديقة مصنّفات مار افرام العجيبة * ومع تعبّدهِ لمريم سيّدة الملائكة والقدّيسين لم يهمل استعطاف هولآء اصفيآء الله والملائكة والرسل والشهدآء وكان يذكر نفوس الموتى المومنين ويطلب لهم الراحة والدخول الى ميناَ السعادة في السمآء . ولذلك فقد نظم مراثي

لتُتلى في تعزية كلّ صنفٍ من الاموات *

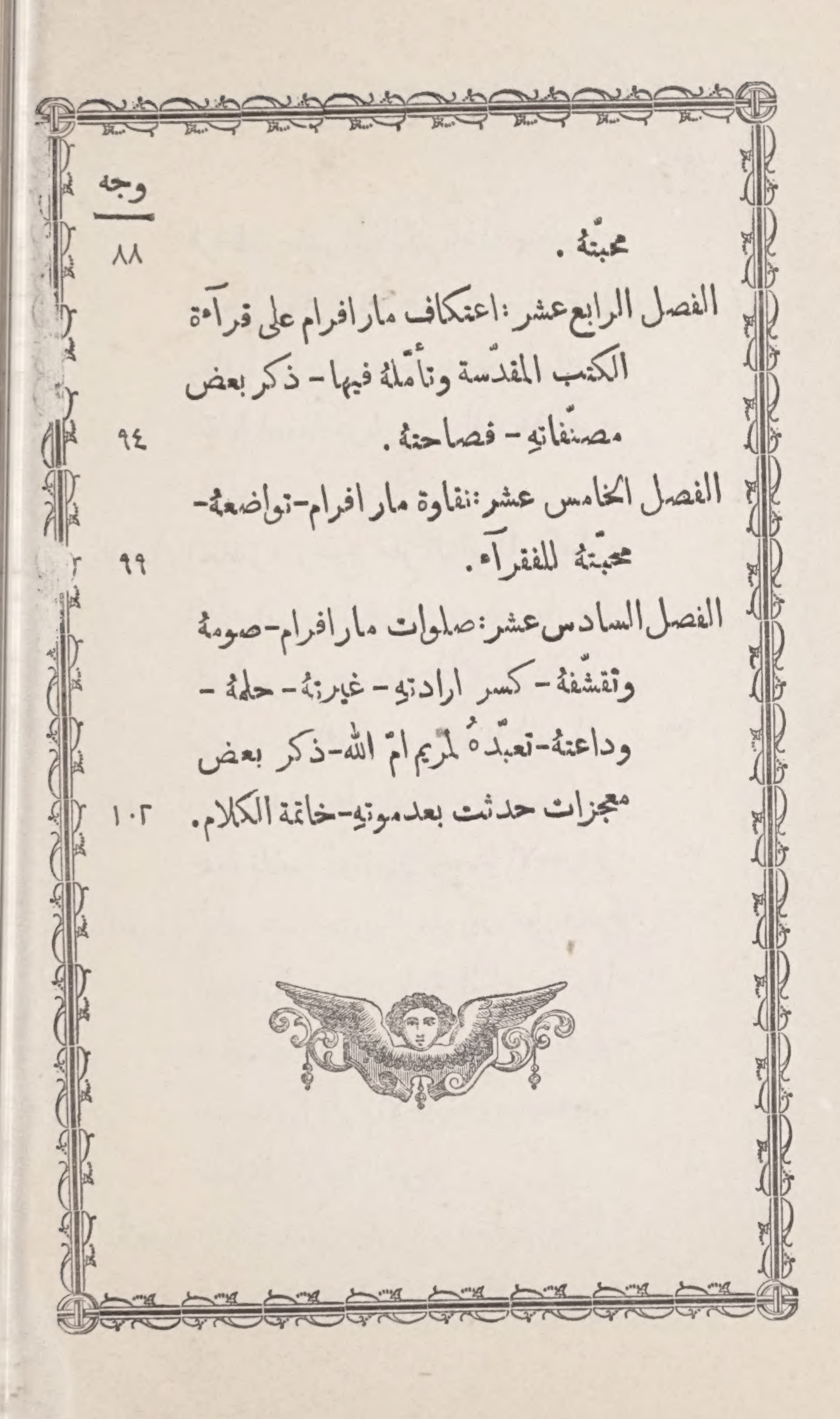
وممّا يستحقّ الذكر انّ مار افرام ما عدا المعجزات والآيات التي اقترحها في حياتهِ . فانّهُ اقترح امثالها بعد رقادهِ * فمن ذلك انّ جنديًّا مسيحيًّا وقع اسيرًا في يد العرب وأُلقِي في سجنٍ ضنكٍ فلمّا رأى نفسهُ في الضيق وخطر الموت تاق الى وطنهِ واهلهِ وكان مار افرام قد توفّي قبل مدّةٍ يسيرة : فاستغاث بهِ بايمانٍ شديد وقال : اغثني يا مار افرام . ولمّا قال هذا . اذا بيدٍ نشلتهُ من السجن وفتحت لهُ بابًا . فعمي الحرّاس عنهُ وتخلّص من الخطر ورجع سالمًا الى بيتهِ وهو يثني على افضال القدّيس افرام ولم يزل يندبهُ ويمدحهُ ما حيي *

وقبل الختام يسوغ لنا ان نختم هذه القصّة بما قالهُ مار غريغوريوس نيصص : هوذا أَخَصُّ الاثنية التي قدّمها لك لساني الجسور يا افضل الآباء ومعلّم المسكونة الباهر مثل هديّة ذليلة ليس لاظهر لنفسي فضلاً فيها ولا لانّك محتاجاً اليها . فانّك تفوقها وصفاً * بل لاجل منفعة الاحياء * فانت الواقف الآن امام عرش الله ومذبح اصل الحيوة وتسبّح الثالوث المقدّس برفقة الملائكة. اذكرنا نحن جميعنا واطلب لنا صفحًا عن خطايانا حتى يمكننا ان نحظى بالسعادة الابديّة في الملكوت السماويّ بحقّ يسوع المسيح ربّنا الذي لهُ المجد مع ابيهِ وروحهِ القدّوس الى ابد الآبدين آمين *



فهرست

وجه





سيرة

مار افرام السريانيّ

ملفان الكنيسة السريانيّة الكبير

جمعها

احد قسوس السريان الكاثوليك



طُبع في الموصل طبعةً ثانيةً

في دير الآبآء الدومنكيين

سنة ١٨٩٦